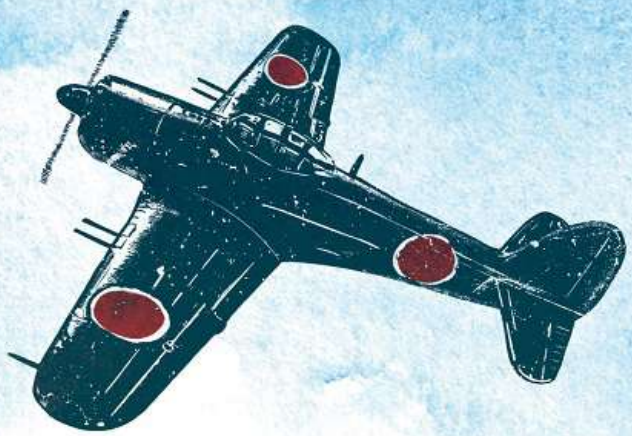

تاتسو هوري

TATSUO HORI

عَلَتْ الرّياحُ

ترجمة: ميسرة عفيفي

عَلَتْ الرّياحُ

الكتاب: **عَلَث الرّياحُ**

المؤلف: **تاتسو هوري**

ترجمة: : **ميسرة عفيفي**

التصنيف: رواية

الناشر: دار مدارك للنشر

الطبعة الأولى: **يناير** (كانون الثاني) 2021

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN: 978 - 614 - 429 - 791 - 9

7917 شارع التخصصي ، حي النخيل، الرياض، المملكة العربية السعودية

7917 Takhassusi St, Al-Nakheel District , Riyadh, Saudi Arabia

Zip Coed: 12383-4284, Riyadh, Saudi Arabia. Tel: +966 114541148

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع محفوظة لـ **مدارك**. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من **مدارك**.

mdrek.com read@mdrek.com DarMadarek

"مزون" ... خط إنتاج مواد مترجمة تقدمها مدارك
بجهود الزملاء، من خلال الناشر، الذي اختار أن يكون
الاسم والجهد، هدية لأمه، مزنة رحمها الله، حيث كانت تهطل
كالسحابة، وتغيث كالمطر، وتحب العلم بشغف.

تركي الدخيل
٢٠١٨/٩/٢٥

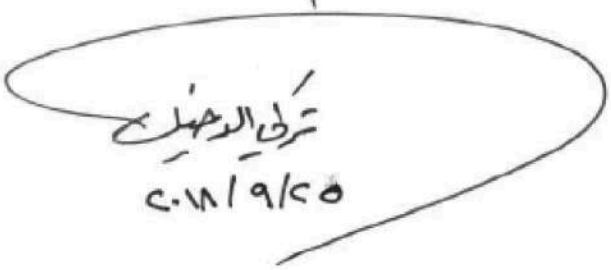

.Le vent se lève, il faut tenter de vivre

PAUL VALÉRY

(عَلتْ الرّياحُ ، لنحاول أن نحيا)

پول ڤاليري

تمهيد

كنتُ دائما في تلك الأيام من الصيف، أرقدُ تحت ظل شجرة قضبان بيضاء بجانبكِ وأنتِ واقفة ترسمين بحماس لوحة لذلك المنظر الذي تملأ سطحه أعشاب السُهوب اليابانية. ثم في الغروب، عندما تنهين عملك، تأتين بجانبي فيضع كل منا يده على كتف الآخر ونظل لفترة من الوقت نتطلع إلى الأفق البعيد الذي تغطيه كتل من الغيوم العالية التي اصطبغت حوافها فقط بلونٍ أرجواني. كما لو أن ذلك الأفق الذي أوشك أخيراً على الغروب، سيلدُ شيئاً ما...

في ظهيرة أحد تلك الأيام (يوم اقترب فيه الخريف بالفعل)، تركنا اللوحة الباقية التي لم تنتهِ من المرة الماضية كما هي معلقة فوق حامل اللوحات، ونمنا تحت ظل شجرة القضبان البيضاء نأكل بعض الفاكهة. كانت تجوب السماء غيومٌ تشبه الرمال الناعمة. وقتها عَلَت فجأة رياحٌ من حيث لا ندري. وبسببها كان لون السماء الأزرق البادي من بين أوراق الشجر فوق رأسينا يتمدد تارة وينكمش تارة أخرى. ثم تقريبا في الوقت نفسه، سمعنا صوت شيء يسقط أمامنا من وسط العشب. ويبدو أن ذلك كان صوت اللوحة وحاملها اللذين تركناهما هناك. أمسكتُ بك عنوة عندما حاولتِ النهوض على الفور، مخافة أن أفقد هذه اللحظات، فلبثتِ بجواري دون أن تبعدي عني. تاركة لي حرية فعل ما أحب.

«عَلتْ الرّياحُ ... لنحاول أن نحيا»

كررتُ بيت الشعر هذا الذي طرق شفتيّ وخرج منهما فجأة وأنا أضعُ يدي على كتفك المستند عليَّ. ثم بعد ذلك نظرتِ أخيراً ناحيتي ووقفتِ. التصقت الأعشاب على كامل سطح قماش اللوحة الذي لم يكن قد جف تماماً. بعد أن أصلحتِ من وضع القائم واللوحة قلتِ وأنتِ تزيلين تلك الأعشاب التي تبدو صعبة الإزالة بسكين الرسم:

«آه، ... لو رآنا أبي على هذه الحال»

ثم نظرتِ ناحيتي وابتسمتِ ابتسامة غامضة.

«بعد يومين أو ثلاثة أيام سيأتي أبي»

قلتِ ذلك فجأة في صباح أحد الأيام، عندما كنا هائمين داخل الغابة. سكتُّ أنا بنوع من التبرم. وعندها نظرتِ ناحيتي وأنتِ تقولين بصوتٍ به قليلٌ من البحّة:

«وإن حدث ذلك فلن نستطيع بعدها القيام بمثل هذه النُزهات»

«نستطيع القيام بأية نزهة، إذا كانت لدينا الرغبة في فعل ذلك»

كنتُ ما زلتُ أُبدي التبرم، وأنا أشعر أن نظراتكِ التي تحاول مراعاة شعوري، تملأني، ولكنني كنت بلا داعٍ مأخوذاً بصخب أفرع الأشجار التي فوقنا أكثر مما يجب.

«إن أبي لا يتركني بسهولة»

رددتُ لك النظر بعيون تبدو وكأنها قد نفد صبرها أخيراً، وقلتُ:

«أتقولين إن ذلك فراقُ بيننا؟»

«ألا ترى أنني ليس بيدي حيلة؟»

قلتِ ذلك وأنتِ تحاولين بكل جهدك إظهار الابتسام لي دليلاً على استسلامك التام. آه يا للون وجهكِ وقتها، ويا للون شفتيكِ كذلك اللتين كانتا في غاية الشحوب!

«تُرى ما الذي جعلكِ تتغيرين هكذا؟ رغم أنه بدا أنك تعتمدين عليَّ تماماً في كل أمر...» قلتُ ذلك وأنا أُظهر أنني فكرتُ عميقاً في الأمر، وأنا أتركِ تسبقينني قليلاً، مُظهراً بكل جهدي صعوبة السير في الطريق الجبلية الضيقة التي بدأت تظهر فيها بتسارع الجذور العارية متدحرجة. في ذلك المكان كانت الأشجار تبدو كثيفة، والجو بارداً للغاية. وتجري بعض الجداول المائية هنا وهناك. وفجأة التمعت الفكرة التالية داخل رأسي. مثلما أطعتِ أنتِ بهذا الشكل شخصاً مثلي قابلتِه صدفة في هذا الصيف لا بل أكثر من ذلك بكثير، ألستِ أنتِ مستسلمة بتلقائية تامة لأبيك، وكل سلطة مرتبطة به مضافة إليه وتتحكم فيكِ بلا توقف... (سِتْسُكو! إذا كنتِ بهذه الصفة فمن المؤكد أنني سأحبكِ أكثر وأكثر. إذا اتضحت لي معالم معيشتي بشكل حاسم أكثر من ذلك، فسأذهب لآخذك أياً كان الأمر، وحتى يحدث ذلك فلا بأس أن تظلي كما أنت الآن في كنف أبيكِ) مسكتُ يدكِ فجأة كما لو أنني أطلب منك موافقة على ذلك، وأنا أقول هذا الكلام في سرّي. وتركتِ أنت تلك اليد لي كما هي،

وهكذا توقفنا أمام أحد الجداول ونحن نعقد يدينا كما هما، واصلنا الصمت، نتأمل بمشاعر مؤلمة، أشعة الشمس التي تتخطى الأشجار القصيرة التي لا حصر لأفرعها المتداخلة ثم تغطس من بين فراغاتها لتسقط على شكل نقاط دائرية، نتأمل تلك الأشعة المتسربة من بين فراغات الأشجار التي تصل إلى هناك وهي تتحرك مهتزة على أثر نسائم رياح تكاد تكون منعدمة تقريباً عندما تصل إلى هناك في أعماق قاع الجدول الصغير الذي يجري بعمق تحت أقدامنا، وإلى أن يصل فوق نبات السرخس النابت تحته.

في مساء أحد الأيام بعد يومين أو ثلاثة أيام، وجدتك في المطعم، أنت وأباك الذي جاء لاستقبالك. كنتِ تولينني ظهرك بشكل يبدو جاقاً. كانت حركاتكِ وهيئتك التي تأخذينها على الأغلب دون وعي منك أثناء وجودك بجوار والدك، تجعلني أحس بأنك فتاة صغيرة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل على الإطلاق.

همستُ لنفسي قائلا: حتى إن ناديتُ عليها باسمها، فإنها من المؤكد أنها لن تلتفت إليّ وستواصل حديثها بشكل طبيعي. تماماً كما لو أنها ليست الشخص الذي ناديته...

في تلك الليلة، بعد عودتي من النزهة المملة التي خرجتُ إليها، بقيت لبعض الوقت أتسكع داخل حديقة الفندق التي ليس بها أثراً لبشر. يفوح عطر زهور الزنبق الذهبية. كنتُ أحملق شارداً في نوافذ غرف الفندق الاثنتين أو الثلاث التي تتسرب منها الإضاءة. بدا أن الضباب على وشك الانتشار. فأُطفئت أنوار الغرف واحدة بعد أخرى وكأنها تخاف من حدوث ذلك. ثم أخيراً غرق الفندق بأكمله في ظلام حالك، ولكن سمعتُ صوت صرير وفُتحتْ إحدى النوافذ ببطء، ثم استندتْ على حافة النافذة طويلاً فتاة صغيرة ترتدي ما يبدو أنه منامة لونها وردي. كانت تلك هي أنتِ...

أستطيع حتى الآن أن أستعيد بوضوح ذكرى شعور ذلك الحزن الذي يشبه السعادة والذي ظل قلبي منقبضاً به يوماً بعد يوم بعد رحيلكما.

كنتُ قد أغلقت عليَّ باب غرفتي في الفندق طوال اليوم لا أغادرها. ثم انشغلتُ لوقت طويل في إنجاز عملي الذي أهملته تماماً من أجلك. استطعتُ أن أندمج بهدوء في العمل تماماً لدرجة لم أستطع أنا نفسي تخيلها. وأثناء ذلك كان كل شيء قد تغير إلى فصل آخر. وأخيراً عندما جاءت الليلة التي تسبق مغادرتي، خرجتُ من الفندق في نزهة بعد غياب طويل.

كانت فوضى عارمة وكأن الخريف قد ضل طريقه داخل الغابة. ظهرت للأمام بلكونات ڤيلات المنتجعات الخالية تماماً من البشر من بين الأشجار التي تناقصت أوراقها بدرجة كبيرة. واختلطت رائحة رطبة لفطريات متنوعة مع رائحة الأوراق الساقطة. أحسستُ بشيء من الغرابة لتغير الفصول بهذه الدرجة غير المتوقعة، ولمرور الوقت لهذه الدرجة بعد فراقنا بدون أشعر به. كان ثمة شيء داخل قلبي، يشبه اليقين من أن ابتعادي عنك هو مجرد أمر طارئ ومؤقت، تُرى هل من أجل ذلك أصبح حتى تغير الزمن هكذا يحمل لي معاني مختلفة تماماً عما كانت عليه إلى الآن؟ ... بدأتُ أفكر شارداً في ذلك الأمر حتى تأكدتُ منه بوضوح بعد ذلك مباشرة.

ثم بعد عشر وبضع دقائق من ذلك، وبعد أن انتهيتُ من التنزه في إحدى الغابات، انفتح المنظر أمامي فجأة، واستطعت النظر إلى المكان بأكمله حتى خط الأفق البعيد، ودخلتُ بقدميّ وسط غابة حشائش السُهوب النابتة في المراعي البرية. ثم رقدت بجسمي تحت ظل شجرة قضبان أبيض بدأت أوراقها بالفعل في التلون باللون الأصفر كانت بجانبي. كان ذلك المكان هو نفسه الذي كنتُ أرقد عليه في أيام الصيف تلك، أتأملك وأنتِ ترسمين. في ذلك الوقت كانت غيوم متراكمة دائماً ما تحجب أغلب منطقة خط الأفق، ولكن الآن تظهر بوضوح حواف سلسلة الجبال البعيدة التي لا أعرف موقعها وهي تفرق قمة حشائش السُهوب التي تهز أطراف سنابلها شديدة البياض.

وأثناء ما كنت أحدّق في سلسلة الجبال البعيدة تلك، مركزاً كل قوتي في عينيّ لدرجة أنني كدتُ أحفظها جميعاً، تدريجياً بدأتْ الطبيعة تجعل اليقين المؤكد الذي اكتشفته مؤخراً، ذلك اليقين الذي كان مختفياً داخل وعيي حتى الآن، اليقين الذي وصل إلى القمة يطفو واضحاً على سطح وعيي...

الربيع

جاء شهر مارس. وفي ظهيرة أحد الأيام، زرتُ منزل سِتْسُكو متظاهراً أني مررت عليهم صدفة استغلالاً لخروجي في نزهتي الدائمة التي بلا هدف. وقتها رأيت والدها عند منطقة الأشجار التي على جانب من الحديقة بعد البوابة مباشرة يرتدي قبعة كبيرة من القش، كتلك التي يرتديها العمال عادةً، ويمسك مقصاً في إحدى يديه، ويقوم بتقليم وتنسيق أفرع شجرة من أشجار الحديقة. وعندما رأيته بحالته تلك، أزحتُ أغصان الشجر مثل طفل صغير واقتربتُ منه، وبعد أن حييته بكلمة أو كلمتين، أخذتُ أتأمل ما يفعله وكأنني أرى شيئاً نادراً... وبهذا الشكل بإدخال جسدي في وسط مرج الزرع، كان شيء ما أبيض يطلق شعاعاً من وقت إلى آخر أعلى أفرع الأشجار هنا وهناك. كان ذلك على ما يبدو براعم الزهور...

فجأة نظر الأب ناحيتي إلى أعلى، وتحدث عن سِتْسُكو التي كنت قد خطبتها وقتها لتوي قائلاً: «على ما يبدو أن صحتها مؤخراً تحسّنت كثيراً. إن أصبحت أكثر مرحاً من الآن أفكر في أن أنقلها لمكان آخر، ما رأيك؟»

قلتُ مغمغماً: «ربما يكون ذلك أفضل...» وأنا ما زلت مهتماً بأحد البراعم التي تتلألأ منذ قليل أمام عيني.

استمر الأب في الحديث دون أن يأبه بي قائلا: «إننا نبحث منذ فترة عن مكان مناسب. ويبدو أن سِتْسُكو تفضل مصحة «ف». وسمعتُ أنك تعرف مدير تلك المصحة، هل هذا صحيح؟»

«أجل» قلتُ ذلك وأنا شارد، وأخيراً جذبتُ بيدي الفرع الذي يحمل البرعم الأبيض الذي اكتشفته منذ قليل.

«ولكن تُرى هل تستطيع سِتْسُكو الذهاب إلى هناك بمفردها؟»

«يبدو أن الجميع يذهبون إلى هناك بمفردهم»

«ولكنها لا تستطيع الذهاب لوحدها، أليس كذلك؟»

قال الأب ذلك بملامح وجه متأزم ولكنه لم ينظر نحوي بوجهه، بل قص بالمقص فجأة أحد أغصان الشجرة الذي كان أمام عينه. وعندما رأيت ذلك

فقدتُ في النهاية قدرتي على التحمّل، ودون وعي مني تفوّهتُ بالكلمات التي يبدو أن الأب لا ينتظر غيرها.

«إذا كان الأمر كذلك هل لي أن أذهب معها؟ حيث إنني سأستطيع إنهاء العمل الذي أقوم به حالياً، حتى ذلك الوقت...»

وأنا أقول ذلك أخيراً تركتُ من يدي مرة أخرى فرع الشجرة الملتصق به البرعم الذي كنت قد أمسكته بيدي لتوي. وفي الوقت نفسه رأيت وجه الأب يصير مشرقاً فجأة. «لو فعلتَ ذلك لنا سيكون أفضل الحلول... ولكن يجب أن أعتذر لك بشدة...».

«لا مطلقاً، بل ربما يمكنني العمل أفضل في وسط الجبل والهدوء».

بعد ذلك واصلنا الحديث معاً عن تفاصيل المنطقة الجبلية التي تقع فيها المصحة. ولكن تحول محتوى الحديث على حين غرة إلى نوع الأشجار التي يقوم بتقليمها الآن. وبدا أن نوعاً من التعاطف الذي يشعر به أحدنا تجاه الآخر، هو الذي أشعل فتيل الحماس في ذلك الحوار الذي لا يتوقف...

وبعد فترة من الوقت سألتُه محاولاً أن يكون سؤالاً تلقائيا غير متعمد: «تُرى هل استيقظت سِسْكو من النوم؟»

قال الأب: «حسناً استيقظت... تفضل، لا مانع أن تدخل من هنا إلى هناك...» ثم أشار باليد التي يمسك بها المقص إلى جهة باب الحديقة المؤدي إلى داخل البيت. تخطيت الزرع، ثم فتحتُ ذلك الباب بصعوبة؛ لأن نبات اللبلاب كان مشتبكاً به لدرجة جعلت فتحه صعباً قليلاً، ودلفتُ من الحديقة مقترباً من الغرفة المنفصلة للمريضة التي كانت تُستخدم حتى ذلك الوقت مرسماً.

كانت سِسْكو على ما يبدو تعلم منذ وقت طويل بوصولي، ويبدو أنها لم تتوقع دخولي كما فعلت من باب الحديقة مباشرة بتلك الطريقة، كانت ترتدي المنامة وتضع لفاعاً بلون فاتح فوق جسمها. ترقد على الأريكة وتعبث بقبعة نسائية ملصق بها أنشوطة رفيعة لم يسبق لي رؤيتها من قبل.

اقتربتُ منها وأنا أنظر إلى هيئتها تلك من خلال الباب الفرنسي. ويبدو أنها عرفت أخيراً بدخولي. ودون وعي حاولتْ أن تنهض من النوم. ولكنها ظلت كما هي راقدة على جنبها، وأظهرت لي ابتسامة بها قليل من الحيرة، ووجهها كما هو يتجه إليّ.

قلتُ لها وأنا أخلع حذائي عند باب الحديقة بشكل فوضوي: «أكنتِ مستيقظة؟»

«لقد حاولت النهوض قليلاً ولكنني تعبتُ سريعاً»

وهي تقول ذلك ألقت بالقبعة التي كانت تلهو بها بعشوائية فوق منضدة المرآة التي بجوارها مباشرة بحركة يد ضعيفة توضح إلى أي مدى هي في غاية الإرهاق، ولكن لم تصل القبعة إلى ذلك المكان ووقعت على الأرض. اقتربتُ من تلك القبعة وانحنيت حتى كاد وجهي أن يلتصق بقدمها تقريباً والتقطتُ القبعة، وهذه المرة أخذتُ ألهو بها بيدي كما كانت تفعل هي منذ قليل.

وبعد ذلك سألتُها:

«لماذا أخرجتِ فجأة هذه القبعة وماذا كنتِ تفعلين بها؟»

«هذه القبعة! أتعلم! إن والدي اشتراها لي بالأمس رغم أنني لا أعلم متى يمكن أن أرتديها... ألا ترى أنه والد غريب الأطوار؟»

«هل هذه من اختيار الوالد؟ إنه حقاً والد رائع... أريني إياها! هل يمكن أن ترتديها لبرهة؟» وحاولتُ مازحاً أن أضع القبعة على رأسها.

قالت: «لا! لا أريد...»

ولكي تتفادى القبعة نهضت منزعجة بنصف جسدها الأعلى. أظهرت ابتسامة تنم عن الضعف وهي تقول تلك الحجة، ثم بدأت في إصلاح شعرها الذي تشعّث وكأنها تذكرت فجأة، بيدها التي تُبرز نحافتها الشديدة، ومع ذلك كانت حركة يدها تلقائية تدل على أنها فتاة صغيرة. ولقد جعلتني حركة اليد التي تبدو بلا أي تكلّف، أشعرُ بجاذبية شاعرية لدرجة أن تهتاج أنفاسي وكأنها بدأت في مداعبتي بتلك الحركة. وهكذا لم أستطع وقتها إلا أن أبعد نظري عنها بلا وعي...

وأخيراً عندما وضعتُ بهدوء القبعة التي كنتُ ألهو بها بيدي حتى ذلك الوقت، فوق منضدة المرآة الموجودة على الجنب، صمتُّ فجأة وكأنني بدأت أفكر في أمر ما، وكذلك ظللتُ أتلافى النظر إليها وهي على تلك الحال.

سألتني فجأة: «هل غضبتَ؟»

وهي تنظر إلى أعلى تجاه وجهي ويبدو عليها مراعاة مشاعري.

قلتُ وأنا أنظر ناحيتها: «لا ليس الأمر كذلك»، وبعد ذلك، دون استكمال الحديث أو أي شيء آخر، قلت فجأة ما يلي: «هل حقاً تنوين الذهاب إلى المصحة؟ لقد قال والدك ذلك لي منذ قليل»

«أجل. فمهما بقيت على حالتي تلك لن أعرف متى يأتي الشفاء. أنا مستعدة للذهاب إلى أي مكان إن كانت صحتي ستتحسن سريعاً. ولكن...»

«ماذا حدث؟ ماذا كنتِ تنوين قوله؟»

«لا شيء. لا عليك»

«حتى لو كان لا شيء جربي أن تقوليه لي... لن تقولي مهما حدث، أليس كذلك؟ حسناً هل أقوله أنا لكِ؟ أنت كنت تريدين القول تعال معي، أليس كذلك؟»

«لا ليس كذلك» ثم قامت فجأة بمحاولة مقاطعة كلامي.

ولكني لم أبالِ بذلك، وبنبرة تختلف عن البداية أكملت قولي بشكل يبدو قلقاً نوعاً ما، وبدأت تدريجياً أصير أكثر جدية.

«... لا، حتى لو قلتِ لي لا تذهب فأنا مع ذلك سأذهب معكِ. ولكن لقد شعرت قليلاً بذلك، وقلقت من ذلك... قبل أن نكون هكذا معاً، كنتُ أحلم بالذهاب والعيش مع فتاة لطيفة وظريفة، نحن الاثنان بمفردنا، في جبل موحش ومهجور نوعاً ما. تُرى ألم يسبق لي أن قلتُ لك هذا الحلم من قبل؟ هل تتذكرين حديثنا في ذلك الكوخ الجبلي، عندما قلت ألا يمكن أن نعيش معاً وسط هذا الجبل؟ ألا تتذكرين؟ وقتها ضحكتِ في براءة طفولية... في الواقع سبب قولي إنني سأذهب معكِ إلى المصحة، أنني أعتقد أن ذلك سيجعل قلبك يتأثر تدريجياً بلا وعي ولا معرفة... أليس الأمر كذلك؟»

كانت تستمع إلى ذلك صامتة وهي تبذل جهداً في البقاء مبتسمة، وقالت بحزم:

«أنا لا أتذكر أي شيء من ذلك»

ثم بعد ذلك كانت على العكس تنظر لي بنظرات مشفقة، وتقول:

«أنت مؤخراً تفكر في أمور مستحيلة تماما...»

وبعد مرور دقائق، رجعت ملامحنا وكأنه لم يكن بيننا أي شيء، وظهر سديم الحرارة هنا وهناك بعد أن صارت الحشائش بالفعل خضراء للغاية خلف الباب ذي المصراعين، فأخذنا نتأملها معاً باستغراب.

***

جاء شهر أبريل، وبدت سِسْسُكو وكأنها تقترب من التحسن تدريجياً. وعلى العكس كلما تأخر ذلك التحسن المزعج من بطء خطواته تأخراً كبيراً، بدا أنه مؤكد نوعاً ما لدرجة أن نصبح معتمدين عليه بشكل لا يمكن وصفه.

حدث ذلك في ظهيرة أحد تلك الأيام، عندما ذهبتُ لبيت سِسْسُكو كان والدها في الخارج وسِسْسُكو باقية بمفردها في غرفتها. كانت تبدو في ذلك اليوم في مزاج جيد جداً، واستبدلت بلوزة زرقاء اللون نادراً ما تستخدمها بمنامتها التي ترتديها أغلب الوقت. وعندما رأيتُ منظرها هذا، حاولتُ بأية وسيلة حثها على الخروج إلى الحديقة. تهب رياح خفيفة، ولكن حتى تلك الرياح كانت رقيقة لدرجة تُشعرنا بالانتعاش. وافقت أخيراً على طلبي وهي تبتسم وتبدو قليلة الثقة بنفسها. وهكذا وضعتْ يدها على كتفي، وخرجنا بحذر من الباب ذي المصراعين، إلى النجيلة بخطوات يشوبها الخطر قليلاً. تختلط بمحاذاة السياج الشجري أنواع مختلفة من الأشجار الأجنبية، وتتشابك أغصانها مع بعضها البعض لدرجة عدم القدرة على التفريق بينها. وعندما اقتربنا ناحية أحواض النباتات المزروعة التي تنبت بتوحش وفوضى، وجدنا أعلى تلك النباتات براعم صغيرة بيضاء وصفراء وبنفسجية تتناثر هنا وهناك، وهي تبدو على وشك التفتح، وعندما وقفتُ قبالة إحدى تلك النباتات، التفتُّ تجاهها وقلت بصيغة السؤال: «هذا هو البنفسج، أليس كذلك؟» بعد أن تذكرتُ فجأة أنها هي التي أخبرتني بذلك في الخريف الماضي على ما أتذكر.

أجابت وهي كما هي تضع يدها على كتفي بنبرة تنم عن الأسى قليلاً: «على الأرجح أن ذلك ليس بنفسجاً مع الأسف»

«إممم... هل يعني ذلك أنك كذبتِ عليَّ حتى الآن؟»

«أنا لا أكذب مطلقاً، ولكننا أخذناها من شخص قال إنها بنفسج... ولكنها زهرة رديئة»

«ما هذا! تعترفين بذلك والزهور صارت على وشك التفتح! حسناً تلك أيضا...»

قلت ذلك وأنا أشير بإصبعي إلى الحوض الذي بجوارها: «ما اسمها؟»

أخذتْها في يديها قائلة: «لزان؟». انتقلنا بعد ذلك لنقف قبالة ذلك الحوض. «إن هذا اللزان حقيقي. انظر! ثمة نوعان من البراعم، أبيض وأصفر. ويقال إن النوع الأصفر هذا نوع نادر. ... وأبي يفخر بذلك...»

لم تبعد ستسكو يدها من فوق كتفي أثناء تبادلنا هذا الحوار الساذج، ثم استندت عليَّ ليس بسبب التعب ولكن بسبب النشوة على ما يبدو. بعد ذلك ظللنا لفترة صامتين. وكأن صمتنا ذلك يجعلنا نستطيع استبقاء الحياة التي تفوح بعطر الزهور المتفتحة كما هي قليلاً. تهب من وقت لآخر رياح ناعمة من بين سياج الأشجار وكأنها أنفاس مضغوطة، فتصل إلى الأحواض التي أمامنا مباشرة وترفع أوراقها قليلاً ثم بعد ذلك ترحل إلى مكان بعيد تاركة إيانا كما نحن وحيدين تماماً.

فجأة دفنت ستسكو وجهها داخل يديها التي كانت موضوعة على كتفي. انتبهتُ إلى أن قلبها يخفق بصوت أعلى من المعتاد. فسألتها برفق: «هل تعبتِ؟»

ردت بصوت خفيض قائلة «كلا»، ولكنني شعرت فوق كتفي بثقل جسدها اللين.

«أشعر بالأسى والحزن عليك، لأنني بهذا الضعف والمرض...» ربما أكون قد شعرتُ بهمسها هذا أكثر من كوني سمعته.

صرختُ في قلبي منزعجاً: لِمَ لا تفهمين أن ضعفك هذا على العكس يجعلني أحبك أكثر من لو كنتِ غير ذلك... ولكنني تعمّدتُ أن أُظهر أنني لم أسمع منها شيئاً على الإطلاق، وعندما ظللتُ واقفاً في ثبات دون أية حركة ولو ضئيلة، رفعت وجهها فجأة لتشيح به بعيداً عني، وابتعدت يدها تدريجياً لتنفصل عن كتفي، ثم قالت بصوت منخفض بأقصى درجة، في تمتمة كأنها تتحدث إلى نفسها:

«تُرى لِمَ صرتُ ضعيفة مؤخراً؟ رغم أنني لم أشعر بشيء حتى أثناء اشتداد المرض عليَّ من فترة...»

وامتد الصمت وكأنه يتوجس من تلك الكلمات. وأثناء ذلك، رفعت وجهها فجأة، وظلت تتأملني، ثم أرخته ثانية، وقالت بصوت متوسط العلو، ومهتاج نوعاً ما: «فجأة صرتُ بشكل ما أريد أن أعيش...»

ثم بعد ذلك أضافت بصوت خفيض جداً يتأرجح بين القدرة على سماعه وعدم سماعه: «وهذا بفضلك...»

***

كان ذلك في الصيف منذ عامين عندما تقابلنا لأول مرة، خرجت من فمي تلك الكلمة بشكل لا إرادي، ثم بعد ذلك فضّلتُ غلق فمي وعدم التلفظ بأي شيء:

«عَلتْ الرّياحُ، لنحاول أن نحيا»

ومع أنني ظللتُ بعدها ناسياً تماماً ذلك البيت من الشعر، إلا أنها كانت أياماً ممتعة حتى لأنها أكثر حزناً وأكثر حيوية ونشاطاً من الحياة ذاتها، لدرجة يمكن أن يقال إنها حياة ما قبل الحياة، لدرجة أن تُبعث لنا الحياة من جديد فجأة.

بدأنا في نهاية ذلك الشهر عمل التجهيزات من أجل الذهاب إلى المصحة في جبال ياتسوگاتاكه، وقررت أن أجعل مدير تلك المصحة «وتصادف أن يكون أحد معارفي» يفحص ستسكو مرة قبل الذهاب إلى المصحة مستغلاً إحدى زياراته لطوكيو.

وفي أحد الأيام جاء مدير المصحة أخيراً إلى بيت ستسكو في الضواحي، وبعد أن كشف عليها للمرة الأولى، قال لنا وهو يبدو في غاية الاستعجال:

«ما هذا! إن حالتك ليست عويصة مطلقاً، على أي حال تأتين إلى الجبل وتصبرين سنة أو سنتين»

ثم قمتُ بتوصيله إلى محطة القطار. لأنني كنتُ أريد أن أسمع منه ولو أنا فقط بعض التفاصيل الدقيقة عن حالتها الصحية.

«ولكن أرجوك لا تخبر المريضة بذلك. أما والدها فسأشرح له الأمر فيما بعد»

بعد أن قام مدير المصحة بهذا التمهيد، علت على وجهه تعبيرات صارمة وقدّم لي شرحاً تفصيلياً عن حالة ستسكو الصحية. ثم بعد ذلك نظر ملياً إليّ،

حيث كنتُ أسمع ذلك الشرح صامتاً، وقال لي وهو يأسى لحالي:

«إن لون وجهك شاحب جداً، كان من الأفضل أن أكشف عليك أنت أيضاً بعدها»

عدتُ من المحطة، ثم ذهبتُ مرة ثانية إلى غرفة المريضة، فكان والدها باقياً بجوارها وهي نائمة كما هي، فقالت إنها تريد النقاش حول موعد الذهاب إلى المصحة. واشتركتُ أنا أيضاً في ذلك النقاش بوجه مكتئب. وأخيراً قال والدها «ولكن...» ثم نهض قائماً وكأنه خطر على باله فجأة موعد أو أمر ما وهو يقول بشك: «إن أصبحت صحتك جيدة لهذه الدرجة، فيبدو أنه سيكفي أن تذهبين في فترة الصيف فقط» ثم غادر الغرفة.

وعندما أصبحنا بمفردنا، تبادلنا الصمت دون أن يكون أحدنا البادئ به. كان مساءً ربيعياً للغاية. كنتُ بدأت أحس بألم بسيط في رأسي، ولأنه أصبح تدريجياً يسبب لي معاناة وقفتُ بهدوء دون أن أُلفت الانتباه واقتربت من الباب الزجاجي واستندتُ على ذلك الباب المفتوح نصفه. ثم بعد ذلك ظللتُ لفترة شارداً لدرجة أنني لا أعرف أنا نفسي ما الذي كنت أفكر فيه، أنظر بعيون عدمية ناحية الزرع على الجهة الأخرى الغارق وسط سطح ضبابي خفيف وأنا أفكر: «إنها رائحة جيدة، تُرى رائحة أي الزهور هي؟»

سمعتُ خلفي صوت المريضة المبحوح قليلاً وهي تقول: «ماذا تفعل؟»

وقد أيقظني ذلك دون قصد من حالة الشلل تلك التي كنتُ عليها. قلتُ لها في كلمات غير مترابطة وأنا أعطي لها ظهري بنبرة تظاهرت وكأنني كنتُ أفكر في أمر ما مختلف:

«كنتُ أفكرُ فيكِ وفي الجبال، وفي حياتنا التي سنعيشها معاً فيما يلي من عمر...»

ولكن أثناء ما كنتُ مستمراً في ذلك القول، جاءني إحساس حقيقي أنني كنتُ فعلاً أفكر في تلك الأمور حتى الآن. أجل، لقد بدا لي أيضاً أنني فكرت فيما يلي:

(إن ذهبنا إلى هناك، على الأرجح سيحدث العديد من الأحداث... إن حياة الإنسان، وكما تفعلين أنتِ دائماً، من الأفضل الاعتماد على ذلك تماماً في كل شيء وأي شيء... وبفعل ذلك، ربما نحصل حتى على تلك الأشياء التي لم نصل إلى تمنيها...)

كنتُ مع تفكيري داخل قلبي في مثل هذا الأمر، على العكس مأخوذاً تماماً بانطباع ضئيل يبدو وكأنه أمر مستحيل تماماً دون أن أنتبه إلى ذلك...

كانت الحديقة ما زالت مضيئة إضاءة خافتة، ولكن عندما انتبهتُ وجدتُ الغرفة من الداخل معتمة تماماً.

قلتُ لها وأنا أُعيد ترتيب ذهني: «هل أشعل مصباح الإضاءة؟»

«كلا، أرجوك لا تشعله بعد...»

كانت صوتها الذي قال ذلك مبحوحاً أكثر من السابق.

ظللنا لفترة دون كلام.

«إنني مختنقة قليلاً، بسبب قوة رائحة العشب...»

«حسناً، هل أغلق هذه الشرفة؟»

وأنا أرد بتلك النبرة الحزينة تقريباً، وضعتُ يدي على مقبض الباب، ثم سحبته لأغلقه.

سمعتُ صوتها هذه المرة محايداً على الأغلب وهي تقول: «حبيبي... هل كنت تبكي؟»

التفتُّ فجأة ناحيتها بحالة من الدهشة.

«ماذا يحملني على البكاء؟... انظري إليّ»

لم تحاول أن تدير وجهها نحوي من داخل فراشها.

كان يبدو أنها تُحدّق بثبات في شيء ما رغم صعوبة معرفة ذلك بسبب عتمة المكان. وعندما تتبّعتُ بنظري ذلك الشيء بما يبدو عليَّ من قلق، وجدتها فقط تحدّق في الفراغ.

«أنا أيضا أعرف... أعرف أن مدير المصحة قال لك شيئاً أثناء عودته...»

كنتُ أريد الرد على الفور بقول أي شيء، ولكن لم تجرِ الكلمات على لساني. فقط نظرتُ مرة ثانية إلى الحديقة التي بدأ الغروب يدخلها وأنا أغلق باب

الشرفة بحرص لكيلا يُصدر صوتاً.

وأخيراً سمعتُ ما يُشبه التنهُّدَ العميق خلف ظهري.

ثم نطقتْ هي وقالت: «المعذرة» كان ذلك الصوت مختلطاً برعشة خفيفة، ولكنه كان أكثر هدوءاً مما سبق. «لا تقلق بخصوص ذلك مطلقاً... ولنعش حياتنا القادمة على قدر ما نستطيع...»

عندما كنتُ أنظر إلى الخلف كانت تضع أناملها بهدوء على طرف عينها، وعرفت أنها كانت تضعها هناك على الدوام.

***

في صباح غائم قليلاً في العشر الأواخر من شهر أبريل، ركبنا عربة الدرجة الثانية للقطار المتجه إلى الإقليم الجبلي بعد أن أوصلنا والدها إلى المحطة، وكنا نُبدي الفرحة والاستمتاع أمام الوالد وكأننا نذهب في رحلة شهر العسل. وغادر القطار الرصيف في هدوء وتأنٍّ، تاركاً خلفه الأب فقط واقفاً محني الظهر قليلاً محاولا على قدر استطاعته إظهار عدم قلقه، وقد بدت عليه الشيخوخة فجأة...

غادر القطار الرصيف تماماً، فأغلقنا النافذة ثم جلسنا في ركن من غرفة الدرجة الثانية الخالية، وقد بدت الوحدة فجأة على وجهينا. ونحن نلصق ركبتينا ببعض وكأننا نحاول بذلك تدفئة قلبينا...

عَلثْ الرّياحُ

صعد القطار الذي ركبناه ملتفاً حول الجبال أكثر من مرة بمحاذاة أودية عميقة، ثم سار مخترقاً هضبة مستوية تكثر فيها حقول العنب ومنفتحة انفتاحاً مفاجئاً، وأخيراً في الوقت الذي استمر القطار يتسلق بإلحاح منطقة جبلية لا نهاية لها، أصبحت السماء أكثر قرباً. ثم تحركت غيوم شديدة السواد بدت حتى الآن تغطي سطح تلك السماء، في غفلة من الزمن لتفترق عن بعضها البعض، لتغطي تلك القطع المتفرقة ما فوقنا. ثم بدأ الهواء يزداد برودة إلى حد ما. وأنا الذي رفعتُ ياقة المعطف عالياً، كنتُ أراقب بقلق وجه ستسكو الذي بدا عليه التشويق أكثر من الإرهاق وقد دفنتْ جسدها تماماً في اللفاع وتغمض عينيها مثل الأطفال. كانت تفتح عينيها من وقت لآخر وتنظر إليّ شاردة. في البداية وفي كل مرة تفعل ذلك كنا نتبادل الابتسام معاً بأعيننا، ولكن في النهاية، بعد أن ينظر كل منا إلى الآخر بقلق بادٍ، نبعد أعيننا سريعاً. ثم تغمض هي عينيها بعد ذلك.

«لقد برد الجو إلى حد ما. تُرى هل ستهطل الثلوج أيضاً؟»

«هل يهطل الثلج كذلك في شهر أبريل؟»

«أجل، لا تنعدم احتمالية هطول الثلوج في هذه المنطقة»

ركّزتُ عيني خارج النافذة حيث أصبح الجو معتماً تماماً مع أن الساعة كانت ما زالت الثالثة. ومع أنه تصطف أعداد لا حصر لها من أشجار الشوح الياباني تختلط بأشجار لاركس بلا أوراق، تنبهتُ إلى أنه مع أننا نمر بالفعل تحت سفح سلسلة جبال ياتسوگاتاكه، ولكن لا يُرى أي ظل ولا أثر للجبل المفترض رؤيته من هذا المكان...

وقف القطار في محطة صغيرة جديرة بأن تكون في هذه المنطقة الجبلية، لا تختلف كثيراً عن كوخ كبير لتخزين الأدوات. وقد جاء لاستقبالنا في المحطة عامل واحد كبير السن يرتدي معطفاً نصفياً عليه شعار المصحة الجبلية.

ذهبنا أنا وستسكو وأنا أسندها بذراعي حتى مكان السيارة الصغيرة القديمة التي كانت تنتظر أمام المحطة. أحسستُ وهي بين ذراعي أنها تترنح في السير، ولكني تظاهرتُ بأنني لم أتنبه إلى ذلك.

«من المؤكد أنكِ تعبتِ، أليس كذلك؟»

«ليس لتلك الدرجة»

نزل معنا عدد من الركاب الذين بدا عليهم أنهم من أهل المنطقة وكانوا يتهامسون حولنا ثم اختفوا أثناء ركوبنا السيارة في لمح البصر داخل القرية بعد أن اختلطوا مع بقية أهلها ولم يعد يمكن التفرقة بينهم.

اخترقت سيارتنا صف البيوت الصغيرة البائسة في القرية، وكنا نعتقد أننا دخلنا منطقة منحدرات كثيرة التعرجات تنتشر بلا نهاية حتى قمة سلسلة جبال باتسوگاتاكه التي لا تُرى، ولكن ظهر في مقدمة السيارة مبنى كبير ذو سقف أحمر يحتوي على عدة أجنحة جانبية وتظهر خلفه غابات برية كثيفة. همستُ وأنا أحس أن جسدي بدأ يميل مع ميل السيارة: «إنه ذلك المبنى»

رفعت ستسكو وجهها لأعلى قليلاً، ثم بنظرات بها قدر من القلق، نظرت فقط إلى ذلك المبنى شاردة.

وعندما وصلنا إلى المصحة، أُدخلنا إلى الغرفة الأولى في الطابق الثاني من المبنى الذي في العمق وتقبع خلفه مباشرة الغابة البرية الموحشة. أُمرت ستسكو بعد كشف طبي بسيط، أن تنام وتستريح على الفور فوق الفراش. كانت غرفة المستشفى ذات الأرضية المفروشة بالمشمّع لا تحتوي إلا على سرير ومقعد ومنضدة دُهنت جميعها بلون أبيض ناصع، ولم يكن ثمة شيء آخر إلا حقائبنا التي أحضرها العمال للتوّ. وعندما أصبحنا بمفردنا، ظللتُ أنا لفترة غير مستقر البال، ولم أحاول دخول الغرفة الجانبية التي تبعث على الضيق والاختناق، المخصصة لمرافق المريض، بل ظللتُ أجول ببصري داخل هذه الغرفة الجرداء شارداً، ثم اقتربتُ مرات عدة من النافذة، أبدي قلقي من حالة الطقس. تجُر الريح غيوماً شديدة السواد تبدو في غاية الثقل. ويتردد من وقت لآخر صوت حاد في الغابة البرية الخلفية. خرجتُ للشرفة وأنا أحس بالبرودة. تمتد الشرفة طويلاً دون أية حدود فاصلة حتى الغرفة التي تقع في نهاية الممر. وعلاوة على ذلك لم يكن هناك أثر لأي شخص، فلم أجد مانعاً من السير للأمام، وعندما اختلستُ النظر إلى الغرف، رأيت من نافذة نصف مفتوحة مريضاً نائماً داخل الغرفة الرابعة، فأسرعت بالعودة إلى حيث كنت.

وأخيراً أُشعلت الأضواء. ثم بعد ذلك جلسنا نتناول وجبة الطعام التي أحضرتها لنا الممرضة. وكانت تلك هي أول وجبة نتناولها نحن الاثنان بمفردنا، فأحسسنا بالوحدة قليلاً. لم أتنبه أثناء تناول الطعام إلى أى شيء

بسبب أن الظلام قد عم المكان بالكامل في الخارج، ولكن فقط أحسستُ أن الهدوء ساد المكان فجأة، فإذا بالثلوج قد بدأت في الهطول.

قمتُ من مكاني، لأجعل فتحة النافذة التي كانت نصف مفتوحة أرفع، ووضعتُ وجهي على زجاجها تماماً، وظللتُ أنظر إلى هطول الثلوج حتى أصبحت أنفاسي بخاراً عليها. أخيرا ابتعدتُ عن النافذة ووليتُ وجهي تجاه ستسكو وتحدثتُ قائلاً: «حسناً، أنت لماذا...»

نظرتْ عالياً إلى وجهي وكأنها تشتكي إليَّ من شيء ما، ثم أشارت بأصبعها إلى فمها وكأنها قررت ألا تدعني أتحدث.

***

تقع المصحة في مكان قلّت فيه أخيراً زاوية انحدار سفح سلسلة جبال ياتسوگاتاكه العملاقة الممتدة بلون بني غامق، متجهة ناحية الجنوب وتمتد أجنحتها الجانبية متوازية. ثم تمتد زاوية ميل ذلك السفح أكثر لتجعل قريتين أو ثلاث قرى جبلية صغيرة مائلة كلياً، لتختفي في النهاية داخل واد بعيد، بعد أن تُحاط بعدد لا نهائي من الصنوبر الأسود.

يمكن النظر من شرفة المصحة الجنوبية بالكامل على قرى تلك المنطقة المائلة والحقول البنية. وكذلك إنْ كان الطقس جيداً تظهر جبال الألب اليابانية الجنوبية وسلسلتها الفرعية الممتدة من الجنوب إلى الغرب وسط الغيوم التي تخلقها هي بنفسها دائماً فوق غابة الصنوبر المتراصة بلا نهاية التي تحيط بها.

في صباح اليوم التالي لوصولنا إلى المصحة، عندما استيقظتُ في غرفتي الجانبية، رأيت السماء صافية تماماً بلون شديد الزرقة داخل حلق النافذة، وعدد من قمم الجبال على شكل عُرف الديك في منظر طولي بانورامي، تعطي انطباعاً وكأنها وُلدت فجأة من الهواء الجوي. ثم ظهر من بين الثلوج التي تراكمت فوق الشرفة والسطح والتي لا يمكن رؤيتها من فوق الفراش، بخار هواء لا ينقطع تنصب عليه أشعة شمس توحي بالربيع.

قفزتُ مسرعاً من الفراش بعد أن زادت فترة نومي قليلاً، ودخلتُ غرفة المريضة المجاورة. كانت ستسكو مستيقظة بالفعل، ووجها محمرّ من السخونة وهي تلتحف بطانية صوف.

قلتُ لها ببساطة وأنا أحس أيضاً أن وجهي سيبدأ بالسخونة: «صباح الخير. هل نمتِ جيداً»

أومأت نحوي قائلة: «أجل. لقد تناولت ليلة أمس منوّماً. ولذا أحس بصداع خفيف».

فتحتُ النافذة والباب الزجاجي المؤدي إلى الشرفة على مصراعيهما وكأنني أقول لها إنني لا أهتم بذلك. سطع في المكان شعاع براق لدرجة عدم القدرة على رؤية أي شيء لفترة، ولكن أثناء ذلك اعتادت العين تدريجياً، فبدأتُ أرى بخاراً خفيفاً يرتفع من الشرفة التي غطّتها الثلوج، ومن سهول المراعي، بل وحتى من الأشجار.

قالت ستسكو من خلفي: «رأيت أيضاً حلماً في غاية الغرابة. إنه...» ثم توقفت.

وأدركتُ على الفور أنها تحاول أن ترغم نفسها على قول أمر يصعب قوله. في تلك الحالة كان صوتها دائماً يصبح مبحوحاً مثل صوتها الآن.

في هذه المرة جاء عليَّ الدور لكي ألتفتُ إليها واضعاً إصبعي على فمها لكي أمنعها من قوله...

وأخيراً دخلتْ الغرفة رئيسة الممرضات بهيئة حنونة لا تهدأ. تدور رئيسة الممرضات هكذا كل صباح من غرفة إلى غرفة لتطمئن على المرضى واحداً بعد آخر.

سألتها رئيسة الممرضات بصوت يبدو عليه النشاط: «هل نمت جيداً ليلة أمس؟»

فلم تقل ستسكو شيئاً بل أومأت بتلقائية فقط.

***

تسبّب مثل هذه الحياة في مصحة جبلية ظهور صفات إنسانية خاصة على الشخص العادي من تلقاء نفسه مثل إيمانه بأنها طريق مسدودة. بدأت بعد الإقامة في المصحة مباشرة أعي بغموض تلك الصفات الإنسانية المجهولة المكنونة داخلي عندما دُعيت إلى غرفة مدير المصحة ليُريني صورة الأشعة السينية التي أُخذت لمرض ستسكو.

أخذني مدير المصحة إلى جوار النافذة، ووجه نيجاتيف الأشعة واحدة بعد أخرى إلي ضوء الشمس وجعلني أنا أيضاً أرى جيداً، وهو يشرح كل صورة على حدة. لقد تعرفتُ بوضوح على عدد من أضلاع القفص الصدري الأيمن التي ظهرت بيضاء، ولكنني لم أستطع رؤية أضلاع القفص الصدري الأيسر لتكوّن خلايا المرض في الجانب الأيسر على هيئة زهرة عجيبة مظلمة.

«إن خلايا المرض منتشرة أكثر مما كنتُ أعتقد... لم أكن أعتقد أن الحالة بهذا السوء... بهذا ربما تكون ثاني أسوأ حالة مقيمة حالياً في المصحة...».

عدتُ من غرفة الكشف وكلمات مدير المصحة تطلق صيحات زاعقة داخل أذني، وتلك الصور التي رأيتها للتو لزهرة مظلمة عجيبة فقط هي التي تعلو نطاق وعيي، وقد أصبحت مثل شخص فقد قدرته على التفكير، فبدا لي وكأن تلك الصور ليست لها أية علاقة بتلك الكلمات التي قالها مدير المصحة. ومرت الممرضات من أمامي بزيهن الأبيض يسرعن في الاتجاه المضاد، وأجساد المرضى العارية التي تتلقى حماماً لأشعة الشمس في الشرفات هنا وهناك، وضوضاء غرف المرضى، وغير ذلك تغريد العصافير، مر كل ذلك من أمامي دون أن يكون له أية تواصل معي. أخيراً دخلت المبنى الذي في الطرف الأقصى، وفي اللحظة التي أبطأت فيها من خطواتي تمهيداً لصعود درجات السلم الموصل إلى الطابق الثاني حيث تقع غرفتنا، سمعت من داخل غرفة تقع قبل ذلك السلم مباشرة، سعالاً مستمراً جافاً كريهاً ومريعاً، سعالاً أسمعه في حياتي للمرة الأولى. تأملتُ رقم ١٧ الملصق على باب تلك الغرفة شارداً وأنا أفكر: (مهلاً هل مثل هذا المكان به مرضى؟)

***

وهكذا بدأنا حياة حب غريب الأطوار.

أُمرت ستسكو منذ دخولها المصحة بالراحة والسكون فظلت نائمة في الفراش على الدوام دون حركة. ومن أجل ذلك، بدت على العكس أكثر مرضاً عند مقارنتها بما قبل دخول المصحة حيث كانت تجتهد في النهوض والحركة عندما تشعر بتحسن، ولكنني لم أعتقد أن مرضها زاد سوءاً. وبدا لي أيضاً أن الأطباء يتعاملون معها على أنها مريضة ستتحسّن سريعاً. وقال مدير المصحة وكأنه يمزح: «وهكذا سنطارد المرض ونقضي عليه»

وأثناء ذلك بدأت الفصول تتسارع وكأنها تستعيد ما بدت عليه من شبه تأخير حتى ذلك الحين. وكأن فصلي الربيع والصيف قد أتيا متدافعين في نفس الوقت تقريباً. كنا نستيقظ كل صباح على تغريد الكروان والبلابل. ثم

كانت خضرة الغابات المحيطة تجتاح المصحة من الجهات الأربع طوال اليوم تقريباً، جاعلة غرف المرضى زاهية الألوان. في تلك الأيام بدت حتى الغيوم البيضاء التي تنبثق من بين الجبال في الصباح تعود في المساء إلى منشأها في الجبال مرة ثانية.

عندما أتذكر تلك الأيام الأولى التي قضيناها معاً، تلك الأيام التي قضيتها ملازماً لفراش ستسكو لا أغادره تقريباً، أشعر أنني لا أستطيع التفرقة بين يوم وآخر، أيها كان في البداية؟ وأيها كان في النهاية؟ بسبب أن تلك الأيام كانت على الأغلب تتشابه، وأنها كانت رتيبة وبسيطة بلا جاذبية.

بل أكثر من ذلك يمكن القول إن الأمر وصل إلى درجة حتى الإحساس بأننا في وقت ما هربنا تماماً من إطار الزمن ونحن نكرر تلك الأيام المتشابهة يوماً بعد يوم. ثم تبدأ معيشتنا اليومية تحمل جاذبية تختلف تماماً، عما كانت عليه حتى ذلك الحين، حتى تفاصيلها الدقيقة واحدة بعد أخرى، بعد أن هربت أيامنا هكذا من إطار الزمن. كانت حياتنا كلها في الواقع تتكوّن من عناصر بسيطة، مثل الدفء المحيط بجسدي، الوجود ذي الرائحة العطرة، التنفس المتسارع قليلاً، اليد الرشيقة التي تحملها يدي، الابتسامات، ثم الحوار العادي الذي نتبادله من وقت لآخر (إن أزلنا كل تلك الأشياء من حياتنا فلن يتبقى إلا الأيام الرتيبة العادية) ثم إنني كنت متيقناً تماماً من أن سبب رضاي واكتفائي بمثل تلك الأشياء المتواضعة البسيطة هو فقط لأنني كنت أشاركها إياها. كان الحدث الوحيد الذي يقع أثناء تلك الأيام، هو أن تصيبها الحُمّى في بعض الأحيان. وكان ذلك لا ريب يجعل جسدها يضعف ويذبل بالتدريج. ولكن لأننا كنا حتى في مثل ذلك اليوم نحاول بلا أي تغيير أن نتذوق جاذبية الروتين اليومي بتفاصيل أكثر وبكسل أكثر وكأننا نختلس سراً طعم الفاكهة المحرمة، لدرجة أننا احتفظنا وقتها أكثر من أي وقت آخر بسعادة الحياة التي لها إلى حد ما طعم الموت، احتفاظاً كاملاً بلا نقصان.

وقتها في غروب أحد الأيام، كنا نتأمل في نشوة واسترخاء أنا من الشرفة، وستسكو من فوق سريرها، مثل كل مرة، سفح الجبل المواجه وهو يستقبل أشعة الغروب التي لم تلبث أن دخلت لتوها، وهي تلتحف بلون قرمزي شبه زاهٍ يجتاحه تدريجياً لون فيراني لا يزال غير مؤكد. ومن حين لآخر تصعد العصافير الصغيرة إلى قمة تلك الغابة وكأنها تذكرت فجأة راسمة خطوطاً مخروطية. كنتُ كما هي عادتي أن أجعل من كل شيء أداة من أدواتي، أفكر أن حتى هذه المنطقة التي تخلق للحظة خاطفة منظر غروب بداية الصيف، على الأرجح لن تستطيع أن تنظر إلينا الآن بمثل هذه السعادة المتدفقة. ثم كنتُ أحلم بأنني سأستطيع اكتشاف صورة سعادتنا تلك مكتملة تماماً بعد

وقت طويل، إنْ حدث وأن بُعث منظر ذلك الغروب الجميل داخل قلبي في وقت ما.

أخيراً وبعد صمت طويل بدأت ستسكو الحديث من خلفي قائلة: «ما الذي تفكر فيه لتلك الدرجة؟»

«كنتُ أفكر إلى أي مدى سيكون أمراً رائعاً جداً إن تذكرنا حياتنا هذه بعد مرور وقت طويل من الآن»

أجابت ستسكو وكأنها تستمتع بأنْ توافقني الرأي : «ربما سيكون كذلك حقاً» ثم عدنا مرة ثانية لنتأمل نفس المنظر كما كنا في صمت. ولكن أثناء ذلك، فجأة أحسست إحساساً غريباً غامضاً، وفي الوقت نفسه، مؤلماً ولا يمكن إيقافه؛ أن من يتأمل في شرود الآن هو أنا وفي نفس الوقت ليس أنا. ثم أحسست وقتها أنني أسمع أنفاساً عميقة من خلفي. ولكن أحسست أن تلك أيضاً كانت أنفاسي أنا. التفتُّ للخلف ناحيتها وكأنني أتأكد من ذلك.

فبدأت تقول بصوت مبحوح قليلاً وهي تعيد لي هذه النظرات: «كما نحن الآن...» ولكن بعد أن بدأت في قول ذلك بدا أنها ترددت قليلاً، ثم أضافت وكأنها تلقي بالكلمات بعيداً: «سيكون من الجيد لو استطعنا الاستمرار هكذا بلا نهاية»

صرختُ بصوت منخفض وقد بدوت منزعجاً فعلاً:

«ثانية! تقولين مثل هذا الكلام!»

أجابت بكلمة واحدة قائلة: «أعتذر» ثم أشاحت بوجهها بعيداً عني.

بدا لي أن المشاعر التي كانت حتى وقت قليل من الآن والتي لا أدري أنا نفسي ما أسبابها، جعلتني أتحول تدريجياً لنوع من أنواع العصبية. ثم نظرت مرة أخرى تجاه الجبل، ولكن كان المنظر الجميل النادر والغريب الذي تولد للحظة واحدة فقط قد اختفى بالفعل.

في تلك الليلة عندما كنت على وشك الذهاب إلى الغرفة المجاورة للنوم، أوقفتني قائلة:

«أعتذر لك عما حدث منذ قليل»

«لا عليك»

«لقد كنت على وشك أن أقول شيئاً آخر ... فخرجت مني تلك الكلمات دون قصد»

«حسناً وما الذي كنت على وشك قوله؟»

قالت ستسكو وهي تتأمل وجهي محاولة أن تُبلِّغ عيني شيئاً ما:

«... ألم يسبق أن قلتَ لي: إن من يعتقد أن الطبيعة جميلة حقاً هي عين شخص اختار أن يموت؟ ... لقد تذكرت وقتها قولك هذا. وبدا لي ذلك الجمال وقتها هكذا».

سقطت عيناي لأسفل لا إرادياً وكأن تلك الكلمات طعنت صدري. فجأة مرت وقتها بذهني خاطرة سريعة. ثم أخيراً ظهرت داخلي بوضوح المشاعر غير المؤكدة التي جعلتني منذ قليل أحس بالعصبية...

(أجل! تُرى لماذا لم أتنبه لذلك الأمر؟ إن من أحس بجمال الطبيعة وقتها لم يكن أنا. بل كنا نحن معاً. إن حاولت القول؛ فإن روح ستسكو هي التي رأت ذلك الحلم من خلال عيني، ثم فقط من خلال أسلوبي أنا... مع أن الأمر كذلك لم أعرف أنه بينما ترى ستسكو حلم لحظاتها الأخيرة، كنت أفكر أنا بأنانية في الوقت الذي تطول فيه أعمارنا...).

بينما كنت ألاحق في تردد تلك الأفكار دون أن أتنبهُ، عندما رفعت عيني في النهاية وجدتُ ستسكو كما هي منذ قليل مستمرة في تأمل وجهي. انحنيت فوقها متجنباً عينيها تلك وقبّلتُ جبهتها. لقد كنتُ أحس بالخجل من أعماق قلبي...

***

أخيراً اشتد الصيف. وكان ذلك بدرجة أكثر عنفاً من صيف أراضي السهول. في الغابة البرية الخلفية، لم تكف حشرات الزيز عن الصراخ طوال اليوم، وكأن حريقاً هائلاً قد حدث. لدرجة تفوح رائحة زيت الأشجار من النافذة التي تُترك مفتوحة على مصراعيها دائماً. وكثر عدد المرضى الذي يُقربون أسرّتهم من الشرفات في وقت الغروب، من أجل التنفس براحة ولو أكثر قليلاً خارج المبنى. وعندما رأينا هؤلاء المرضى أنا وستسكو عرفنا أن عدد

المرضى داخل المصحة في ازدياد مفاجئ في تلك الآونة. ولكننا مع ذلك ظللنا بلا تغيير في ممارسة حياتنا وحيدين دون أي اعتبار لأحد.

في ذلك الوقت، فقدتْ ستسكو شهيتها للطعام تماماً بسبب الحر، وكذلك كثر على ما يبدو عدد الليالي التي لا تستطيع النوم فيها. ركزتُ اهتمامي أكثر من السابق، من أجل أن أحميها أثناء نوم القيلولة من أصوات أقدام الممر، وحشرات الزيز وذباب النبراء التي تهجم قافزة من النافذة. ثم كنت أقلق أيضاً بخصوص أنفاسي أنا التي تزداد علواً دون قصد بسبب ذلك الحر.

وهكذا كانت حمايتي للمريضة النائمة وأنا أكتم أنفاسي بجوار سريرها بالنسبة لي تُعد غفوة قيلولة لي أنا أيضاً. كنت أشعر وهي نائمة بتغير أنفاسها سرعة وإبطاء بدرجة مؤلمة. لقد تشاركتُ معها حتى خفقان قلبها. وأحياناً ما يبدو أنها تصاب بضيق في التنفس. ووقتها كانت تحمل يدها وهي تهتز قليلاً وتذهب بها حتى عنقها، وتضغط عليه، ويُعتقد أنها تُهاجم من شيء ما في الحلم، وأثناء ما كنتُ أحتار أمن الأفضل إيقاظها أم لا؟ تمر تلك الحالة من المعاناة، وتأتي حالة من الاسترخاء. وعندها وأنا أطمئن لا إرادياً أشعر في ذلك التنفس الهادئ لها بنوع من أنواع الإحساس الممتع، ثم عندما تستيقظ هي، كنتُ أضع ببطء قبلة على شعرها. فتنظر لي بعينين كسولتين.

«هل كنتَ هنا طوال الوقت؟»

«أجل، لقد كنتُ أنا كذلك أغفو من حين لآخر هنا»

في مثل تلك الليلة، عندما يحدث أن أكون أنا أيضاً لا أستطيع النوم لوقت طويل، أصبحت تلك عادة دائمة عندي، دون أن أدري أنا نفسي، أصبحتُ أقلدها في أن أرفع يدي وأضغط على عنقي. ثم بعد أن انتبهتُ إلى ذلك، أصبحتُ في النهاية أشعر أنا أيضاً بضيق حقيقي في التنفس. ولكن، حتى ذلك كان أمراً ممتعاً بالنسبة لي.

في يوم ما، ظلت ستسكو تتأملني بتواصل أكثر من المعتاد ثم سألتني: «يبدو لي وجهك في الأيام الأخيرة أكثر شحوباً، هل أصابك سوء؟»

«لم يحدث شيء» كنتُ أحب أن تقول لي ذلك. «ألستُ دائماً بهذه الحال؟»

«ألا تتوقف عن الركون بجوار المرضى وتذهب قليلاً للتنزه؟»

«وهل يمكن التنزه في مثل هذا الجو شديد الحرارة؟ وكذلك في الليل يكون المكان شديد الظلمة، إضافة إلى ذلك، أنا كل يوم أروح وآتي كثيراً داخل المستشفى»

ومن أجل ألا يتقدم هذا الحديث أكثر من ذلك، بدأت أحدثها عن المرضى الآخرين الذين أقابلهم كل يوم في ممرات المصحة. أحدثها عن المرضى صغار السن الذين يتجمعون في كتلة واحدة عند طرف الشرفة ويتخيلون معاً الغيوم التي تتحرك في السماء على أنها خيول تتسابق في سباق الخيل، وعن المريض بالغ الطول بدرجة مهولة المصاب بمرض الوهن العصبي الشديد الذي يقطع الممر ذهاباً وإياباً مرات عدة بلا نهاية وهو يستند دائماً على ذراع الممرضة المرافقة له. ولكنني كنت أجتهد في أن أتجنب الحديث عن مريض الغرفة رقم ١٧ الذي أسمع سعاله الكريه والمرعب نوعاً ما كلما مررت من أمام غرفته، والذي لم أر وجهه بعد. وأنا أفكر أن ذلك على الأرجح هو صاحب أسوأ حالة داخل هذه المصحة...

ظلت الليالي التي يصعب فيها النوم مستمرة طويلاً، رغم أن نهاية شهر أغسطس اقتربت أخيراً. في إحدى تلك الليالي، عندما كنتُ أجد صعوبة في النوم (كان وقت الخلود للنوم وهو التاسعة مساء قد فات منذ وقت طويل)، بدأت تحدث ضوضاء شديدة في الطابق الأسفل من أحد أجنحة على الجانب الآخر للمصحة. علاوة على ذلك كنتُ أسمع صوت أقدام تهرع في الممرات من حين لآخر، وصرخات الممرضات الخفيضة المكتومة، مختلطة بصوت ارتطام الأدوات. ظللتُ لفترة أصغي السمع بأذني وأنا في غاية القلق. وعندما ظننتُ أن الأمر قد هدأ أخيراً، في نفس الوقت تقريباً حدثت ضجة من الصمت شبيهة تماماً بذلك في جميع أجنحة المصحة هنا وهناك، وفي النهاية سُمعت الضوضاء نفسها في الطابق الذي أسفلنا مباشرة.

كنتُ أعرف ما الذي يعيث ضجة وجلبة في المصحة الآن وكأنه إعصار مدمر. أثناء ذلك كنت أرهف السمع، ومع أن الإضاءة مطفأة منذ فترة، ولكن كان يُسمع صوت المرضى في الغرف المجاورة الذين استعصى عليهم النوم حتى الآن مثلي. كان المرضى لا يتقلبون حتى على أجنابهم، بل ظلوا ثابتين بلا حركة. وكنتُ أنا كذلك ثابتاً بلا حركة لدرجة ضيق التنفس، وظللتُ أنتظر أن يسكن ذلك الإعصار من تلقاء نفسه ويذبل.

وفي منتصف الليل بدا أن تلك العاصفة سكنت وذبلت من تلقاء نفسها، لذا اطمأننتُ لا إرادياً، وكنتُ على وشك النعاس، ولكن فجأة، سعلت المريضة في الغرفة المجاورة سعالاً عصبياً، بدا أنها كانت تكتمه حتى تمر العاصفة، مرتين

أو ثلاث مرات بقوة، فاستيقظتُ فجأة. ولقد توقف ذلك السعال على الفور، ولكنني يبدو أنني كنتُ مشغول البال بها، ولذلك ذهبت لاستطلاع الأمر في الغرفة المجاورة بهدوء. كانت ستسكو تفتح عينيها على وسعهما وتنظر تجاهي في وسط الظلام الحالك وكأنها مرعوبة. اقتربتُ منها في صمت. كانت تجتهد في أن تبتسم وهي تقول لي بصوت ضعيف لدرجة أنه لا يكاد يُسمع: «ما زلتُ على ما يرام»

جلستُ على حافة السرير صامتاً.

فقالت ستسكو لي بوهن لا يشبه ما هي عليه دائماً:

«كن هنا بجانبي»

وهكذا قضينا الليل حتى أصبح الصباح دون أن يغمض لنا جفن.

ثم بدأ الصيف يذبل فجأة بعد يومين أو ثلاثة أيام من ذلك الحدث.

***

وفي شهر سبتمبر، ظلت أمطار عاصفة نوعاً ما تهطل ثم تتوقف مرات عدة، ثم أثناء ذلك ظلت لفترة طويلة تهطل دون أن تتوقف تقريباً. وكانت تلك الأمطار تسبب تعفن أوراق الأشجار قبل أن يصفرّ لونها. وكانت جميع غرف المصحة في درجة من العتمة كل يوم جراء غلق نوافذها بصرامة. وكانت الرياح تجعل الأبواب والنوافذ تخفق أحياناً. ثم تهب أصوات رتيبة ثقيلة الوطء من الغابة البرية الخلفية. وكنا نستمع طوال اليوم إلى أصوات زخات المطر وهي تسقط فوق الشرفة مارة بالسقف في الأيام التي ليس فيها رياح. وفي صباح مبكّر كنتُ أنظر في شرود من النافذة إلى الحديقة الداخلية المستطيلة المواجهة للشرفة وقد أصبحت مضاءة إلى حد ما مع قليل من العتمة، وقد بدأت الأمطار تتحول في النهاية إلى ما يشبه الضباب. فرأيتُ وقتها وسط المطر الذي يشبه الضباب، ممرضة تقترب من الجهة الأخرى للحديقة الداخلية وهي تقطف أزهار الأقحوان والنجماوات البرية المتفتحة هنا وهناك في غير موسمها بقدر ما تطوله يداها. وعرفتُ أنها الممرضة المرافقة للمريض في غرفة ١٧. وأنا أفكر: (ربما يكون ذلك المريض الذي أسمع منه فقط ذلك السعال المنفر قد توفي)، وأثناء ما كنت أتأمل منظر تلك الممرضة التي تقطف الزهور وهي مهتاجة نوعاً ما ومياه الأمطار تبللها، أحسستُ بانقباض في قلبي فجأة. (هل كان حقاً ذلك المريض هو أسوأ حالة

هنا كما توقعت؟ ولكن إنْ مات هذه المرة تكون؟... آه، كان من الأفضل ألا يتحدث لي مدير المصحة بهذا الأمر...).

ظللتُ ملصقاً وجهي على زجاج النافذة كما أنا، وكأنني فراغ، حتى بعد أن اختفت الممرضة في ظل الشرفة وهي تحمل باقة الزهور الكبيرة.

سألتني ستسكو من فوق سرير المرض: «ما الذي تنظر إليه هكذا؟»

«ثمة ممرضة ظلت تقطف الزهور وسط ذلك المطر منذ فترة من الوقت، تُرى من هي؟»

ابتعدتُ عن النافذة أخيراً وأنا أهمس بذلك وكأنني أحدث نفسي.

ولكن، أخيراً طوال ذلك اليوم، لم أستطع أن أرى وجه ستسكو جيداً. كانت تتعمد التظاهر بعدم المعرفة مع إدراكها لكل شيء، وأحيانا ما تشعر أنني أحملق فيها بثبات، فكان ذلك سبباً لعذابي أكثر وأكثر. بدأنا هكذا بالتبادل نحمل قلقاً وخوفاً لا ندرك كنهه، ومع اجتهادي في محاولة نسيان ذلك الأمر على وجه السرعة، لأنني كنت أعيد التفكير أنه لا يجب أن يبدأ كل منا التفكير على حدة في أمور مختلفة شيئاً فشيئاً، إلا أن ذلك الأمر فقط كان يطرأ لذهني دون أن أتنبه له. ثم في النهاية، الحلم الذي رأته المريضة في الليلة التي وصلنا فيها هذه المصحة الليلة التي هطلت فيها الثلوج، حتى ذلك الحلم المشؤوم الذي ظللت أفكر في أنني لا يجب أن أسأل المريضة عنه ومع ذلك ضعفت أمامها وسمعته منها، ومع أنني كنت قد نسيته طوال تلك الفترة، بدأ يطرأ بوضوح لذهني. داخل ذلك الحلم العجيب، كانت المريضة قد أصبحت جثة نائمة داخل تابوت. وكان الناس يحملون ذلك التابوت على أكتافهم ويخترقون أحد المراعي بالعرض، ثم دخلوا غابة. ولكنها وهي ميتة ترى بوضوح من داخل التابوت سطح المرعى الذابل وشجر صنوبر الشوح الأسود، وتسمع بأذنيها صوت الرياح التي تهب مارة فوق ذلك في عزلة موحشة... وبعد استيقاظها من ذلك الحلم، كانت أذناها باردتين جداً، وتشعر بجلاء أنها ما زالت تمتلئ بضجيج صنوبر الشوح...

كان الفصل قد تغير وأصبح فصلاً مختلفاً أثناء استمرار هطول تلك الأمطار التي تشبه الضباب لأيام عدة. وحتى عند النظر بانتباه داخل المصحة، بدأ يرحل مريض ثم آخر من ذلك العدد الكبير من المرضى، وتبقى فقط المرضى ذوو الأمراض المستعصية الذين يجب عليهم اجتياز الشتاء هنا، فعاد الوضع مرة ثانية إلى الوحدة والعزلة التي كانت قبل قدوم الصيف. وأظهر موت مريض الغرفة رقم ١٧ تلك الوحدة فجأة.

وفي صباح أحد أيام نهاية شهر سبتمبر، عندما كنتُ أنظر بلا هدف إلى الغابة البرية الخلفية من نافذة الممر الشمالية، أحسستُ بحركة دخول وخروج أناس لتلك الغابة الضبابية بشكل غريب وغير معتاد. وعندما سألتُ الممرضات أجبن بعدم معرفتهن شيئاً. وبعدها نسيت تماماً ذلك الأمر، ولكن في اليوم التالي أيضاً، جاء بضعة رجال وبدأوا يقطعون ما يبدو أنها أشجار الكستناء في تلك الهضبة الخضراء، وهم يظهرون تارة ويختفون تارة أخرى.

في ذلك اليوم، عرفت صدفة بما يبدو أنه حدث فجأة في اليوم السابق ولا يعرفه المرضى بعد. وكان ذلك أن مريض الوهن العصبي المنفر إياه عُثر عليه مشنوقاً داخل تلك الغابة. وعندما سمعت ذلك تنبهت إلى أن ذلك الرجل الضخم الذي كنتُ أراه في اليوم مرات عدة عند عملي أي شيء يقطع الممر ذهاباً وإياباً مستنداً على ذراع ممرضته قد اختفى فجأة منذ أمس.

(هل كان دور ذلك الرجل؟!...)، أنا الذي كنتُ أعيش على أعصابي بشدة منذ موت مريض غرفة رقم ١٧، ومن أجل ذلك الموت الثاني غير المتوقع الذي تتابع قبل مرور أسبوع واحد فقط، أحسستُ بالاطمئنان لا شعورياً. ثم بعد ذلك، يمكن القول إنني لم أشعر تقريباً حتى بالكراهية التي من المؤكد أنني تلقيتها من ذلك الموت الشنيع.

كنتُ أتحدث إلى نفسي بخفة وأسمعها قائلاً: (حتى وإن قيل إنها ثاني أسوأ حالة بعد المريض الذي مات منذ أيام، فليس معنى ذلك أن موتها أمر مقرر بالفعل).

قُطعت شجرتان أو ثلاث شجرات فقط من أشجار الكستناء في الغابة الخلفية، ونوعاً ما صار هناك شعور ببقاء بعض الفراغ، ثم بعد ذلك استمر العمال في تكسير الهضبة الخضراء وإسقاطها، وحملوا تلك التربة إلى أرض فضاء أسفل منحدر مفاجئ في الجناح الشمالي من أجنحة المصحة، وبدأوا في جعل المنطقة بأكملها تأخذ شكلاً منحدراً لطيف الميل. ثم بدأوا في العمل على تغييرها إلى أحواض للزهور.

***

«وصلت رسالة من والدك»

سلمت ستسكو أحد الخطابات من الحزمة التي تسلمتها من الممرضة. وعندما أخذته مني وهي نائمة على السرير كما هي، تألقت عيناها فجأة مثل طفلة صغيرة، وبدأت تقرأ الرسالة.

«آوه، يقول آبي إنه سيأتي هنا»

لقد كتب والدها في الرسالة أنه سينتهز فرصة عودته من السفر ويمر في طريق عودته قريباً على المصحة.

كان ذلك يوماً صحواً جداً من شهر أكتوبر، ولكن كانت الرياح قوية نوعاً ما. ستسكو التي كانت في تلك الفترة تلازم الفراش بلا حركة، فضعفت شهيتها، وظهرت عليها النحافة، اجتهدت في أن تأكل وتنهض فوق السرير من حين لآخر وتجلس. وكانت أيضاً أحياناً ما تتذكر شيئاً فيفوح فوق وجهها ما يشبه الابتسامة. وعرفتُ أن تلك ما يشبه تجارب لابتسامات أنثوية تظهرها على وجهها دائماً أمام والدها فقط. كنتُ وقتها أتركها تفعل ما يحلو لها.

مرت أيام عدة بعد ذلك اليوم، ثم جاء والدها بعد ظهر أحد الأيام.

بدا والدها وكأن عمره قد زاد كثيراً، ولكن كان الأبرز من ذلك هو شدة انحناءة ظهره للأمام. وكان يُكثِر كذلك من إبداء الخوف من هواء المستشفى إلى حد ما. وهكذا جلس بمجرد دخوله غرفة ستسكو بالقرب من وسادتها حيث أجلس أنا دائماً. وقد ارتفعت درجة حرارتها قليلاً ليلة أمس ربما بسبب تحركها في الأيام الأخيرة أكثر من اللازم، فأمرها الطبيب بعدم الحركة وملازمة الفراش منذ الصباح، ما جعل توقعاتها تذهب أدراج الرياح.

أظهر الوالد قلقاً إلى حد ما عندما رأى ابنته تلزم الفراش دون حركة بعد أن كان يظن أنها أصبحت بالفعل على وشك الشفاء التام تقريباً. ثم وكأنه يبحث عن سبب حدوث ذلك أخذ يدور ببصره في أرجاء الغرفة، ويراقب حركات الممرضات حركة وراء أخرى، ثم بعد ذلك وصل الأمر إلى أن يخرج إلى الشرفة لرؤيتها، ولكن لم يكن كل ذلك يرضيه. ولكن عندما رأى الوالد وجه ستسكو قد توّرد أكثر وأكثر بسبب الحمى في الأساس وليس بسبب الحماس لمقابلة والدها، أخذ يكرر: «ولكن لون وجهك طيب جيداً»، وكأنه يحاول أن يقنع نفسه أن صحة ابنته أصبحت أفضل.

تحججتُ بأن لدي ما يجب عليَّ فعله ثم غادرت الغرفة لأدعهما وحدهما. وأخيراً عندما رجعت مرة أخرى إليهما بعد فترة كانت ستسكو قد نهضت وجلست على السرير. ثم كانت قد فرشت غلاف علبة الحلوى وغيرها من الأغلفة على السرير بأكمله. ويبدو أن تلك هي جميع أنواع الحلوى التي تحبها ستسكو في طفولتها، وكان والدها يعتقد أنها ما زالت تحبها حتى الآن. وعندما رأتني تورّد وجهها مثل طفلة عُثر عليها وهي تسيء السلوك، وبدأت على الفور في ترتيب الأغلفة وإزاحتها جانباً. ابتعدتُ قليلاً عن الاثنين وأنا

أشعر ببعض الإحراج نوعاً ما، وجلست على المقعد الذي بجوار النافذة. أكمل الاثنان ما يبدو أنهما قطعاه من حديث بسبب دخولي، فتحدثا بصوت أكثر انخفاضاً مما كان عليه قبل قليل. وكان أكثر الحديث عن أشخاص وأمور مألوفة لديهما ولا أعرفها أنا. وسبب لها أحدها تأثّراً وفرحة بسيطة لا أستطيع أنا معرفتها.

كنتُ أنظر إلى حديثهما الممتع وأنا أقارن بينهما وكأنني أرى لوحة فنية. تعرفت أثناء ذلك الحوار، بين ملامحها وتعبيرات وجهها التي تُظهرها لوالدها، على بريق يشبه كثيراً بريق طفلة صغيرة يعود إلى الحياة مجدداً. ثم جعلني منظر سعادتها الطفولية تلك، أحلم بفترة طفولتها التي لا أعلم أنا عنها شيئاً...

وانتهزتُ فرصة لحظات انفردنا فيها أنا وهي فاقتربتُ منها وهمستُ في أذنها ساخراً:

«إنكِ اليوم تشبهين طفلة بلون الورود لا أعرف عنها شيئاً»

«لا أدري»

ثم أخفت ستسكو وجهها بكلتا يديها وكأنها فعلاً طفلة صغيرة.

***

أقام والدها يومين ثم رحل.

وقبل مغادرته، قمتُ بإرشاده في جولة حول المصحة. ولكن كان الهدف من ذلك هو الحديث معاً على انفراد. كان اليوم صحواً وما من غيمة واحدة في السماء. وكنتُ إن رفعتُ أصبعي وأشرتُ تجاه سلسلة جبال ياتسوگاتاكه وقد ظهرت أسطحها البنية واضحة، كان الوالد ينظر نظرة سريعة فقط ثم يواصل حديثه معي بحماس.

«ألا ترى أن جسدها ليس معتاداً على مثل هذا المكان؟ لقد مر أكثر من ستة أشهر، ويُفترض أن تتحسّن حالتها قليلاً...»

«لا أدري، ولكن أعتقد أن الصيف هذا العام سيئ في كل الأماكن. وعلاوة على ذلك يُقال إن مثل هذه المصحة الجبلية تكون أفضل في الشتاء...»

«هذا إن صبرنا حتى الشتاء... ولكن لا يمكن الصبر على هذه الحال مطلقاً...»

«ولكنها هي نفسها تنوي البقاء حتى الشتاء»

استمر الحوار المتناقض بيننا، فبينما كنتُ مهموماً بالتفكير في طريقة لجعل الوالد يتفهم أن عزلة هذه الجبال تعطي لنا سعادة لا حد لها، لم أستطع قول شيء بسبب تذكّري التضحيات التي يبذلها والدها من أجلنا.

«حسناً بما أنها أتت حتى هذه المنطقة الجبلية، ألا تسمح لها بالبقاء قدر المستطاع؟»

«... ولكن هل تظل أنت أيضاً معها حتى الشتاء؟»

«أجل، بالتأكيد سأظل بكل ترحيب»

«الحقيقة أنني أخجل منك جداً في هذا الخصوص... ولكن هل تقوم حالياً بالعمل؟»

«كلا...»

«ولكن يجب عليك أن تعمل ولو قليلاً، ولا تقضي كل الوقت في رعاية المريضة فقط»

قلت بنبرة متلجلجة: «أجل، سأفعل ذلك فيما يلي من أيام...»

(حقا، لقد أهملتُ عملي لفترة طويلة من الوقت. يجب عليَّ من الآن البدء في العمل بأي شكل) وأنا أفكر هكذا في عقلي، تأثرت مشاعري كثيراً. ظللنا لفترة في صمت، جالسين فوق الهضبة، وننظر بثبات إلى الغيوم التي بدأت تنتشر سريعاً وفي غفلة من الزمن في السماء من ناحية الغرب، فيما يشبه قشر أسماك لا نهاية له.

وأخيراً اخترقنا الغابة البرية التي اصفرت أوراقها تماماً، ورجعنا إلى المصحة من الباب الخلفي. وفي ذلك اليوم أيضاً كان عدد من العمال يقطعون أشجار تلك الهضبة. قلت ونحن نمر من جوارهم: «يبدو أنهم ينشئون أحواض زهور في هذا المكان» وكأن شيئاً لم يحدث مطلقاً. ثم التزمتُ الصمت بعد ذلك.

ذهبتُ في المساء لتوديع الوالد حتى المحطة، وعندما رجعتُ وجدت ستسكو ترقد على جنبها فوق السرير وتسعل سعالاً عنيفاً. ولم يسبق لها أن سعلتِ

هذا السعال العنيف من قبل مطلقاً. سألتها: «ما الذي حدث؟» وأنا أنتظر أن تهدأ تلك النوبة.

لم تقدر ستسكو إلا على قول: «لا شيء... ستنتهي سريعاً. أرجوك ناولني ذلك الماء»

صببتُ قليلاً من الماء من الدورق في كوب، وحملته مقرباً إياه من فمها. وبعد أن شربتْ منه شربة واحدة التزمت الهدوء لفترة قصيرة، ولكن مرت تلك الحالة سريعاً، وهاجمتها نوبة بدرجة أكثر عنفاً من السابقة. ولم يكن في استطاعتي عمل شيء تجاهها وهي تتلوى بجسدها حتى حافة السرير، إلا فقط سؤالها:

«هل أستدعي الممرضة؟»

«.....»

ظلتْ ستسكو حتى بعد هدوء تلك النوبة، لفترة طويلة كما هي ملتوية الجسد في حالة تبدو أنها تتألم، تومئ فقط وهي تغطي وجهها بكلتا يديها.

ذهبتُ لاستدعاء الممرضة. وعندما رجعت ودخلت غرفة المريضة بعد الممرضة التي هرعت مسرعة قبلي دون أن تبالي بي، كانت ستسكو والممرضة تسندها بكلتا يديها قد عادت إلى وضعها الأصلي والألم باد على وجهها. ولكن كانت عيناها مفتوحتين على وسعهما في شرود وكأنهما فارغتان. على ما يبدو أن نوبة السعال قد انتهت مؤقتاً.

بدأت الممرضة تقول وهي تصلح من البطانية التي تبعثرت: «لقد انتهى السعال بالفعل... ابقي قليلا هادئة على هذه الحالة. سأذهب حالياً لأطلب لك حقنة»

همست الممرضة في أذني وهي تغادر الغرفة وقد كنتُ أقف متخشباً بجوار الباب لأنني لم أعرف أين أقف: «لقد خرجت دماء قليلة مع البلغم»

اقتربتُ من فراشها أخيراً.

كانت ستسكو تفتح عينيها في شرود، ولكنها لم تبدُ إلا أنها نائمة. مسحتُ بهدوء على جبينها الشاحب الذي امتلأ بعرق بارد بعد أن أزحت عنها شعرها

الذي تعقد عليها صانعاَ دوامات صغيرة. وأخيراَ وكأنها أحست بوجودي الدافئ، أبدت على شفتيها ابتسامة سريعة مثل اللغز.

***

استمرت الأيام التي أُمرتْ فيها بعدم التحرك من السرير بتاتاً.

غُطيت نافذة الغرفة بأوراق الأشجار التي اصفرت تماماً، وجعلت الغرفة معتمة قليلاً. وكانت الممرضات كذلك يسرن على أطراف أصابعهن. ظللتُ على الدوام تقريباً بجوار سرير ستسكو لا أغادره. وقمتُ وحدي بالسهر عليها طوال الليل. وأحياناً ما تستيقظ ستسكو وتنظر تجاهي ثم تبدأ في قول شيء. فأضعُ أصابعي فوراً على فمها لكي أمنعها من قوله.

مثل هذا الصمت، يجعل أفكار كل منا تتغلغل إلى داخلنا كل على حدة. لكن كل منا كان يشعر بما يفكر فيه الآخر لدرجة الألم. فلقد شعرتُ بوضوح تام أنه بينما كانت تسيطر عليَّ أنا فكرة أن الأحداث هذه المرة تغيّرت ليتضح في عيني فقط إلى أي مدى تضحي ستسكو من أجلي، كانت ستسكو كمريضة تُؤنّب نفسها وكأن هفواتها البسيطة هي التي دمرتْ في لحظة كل ما بنيناه معاً حتى الآن بحرص شديد.

وكان قلبي يُخنق بشدة من مشاعر ستسكو المؤثرة وهي تؤنب نفسها فقط على هفواتها البسيطة دون أن ترى تضحيتها على أنها تضحية. تُرى هل يمكن أن تنتهي متعة الحياة التي نذوقها معا باستمتاع (الشيء الذي نؤمن نحن الاثنان بأنه يجعلنا سعداء سعادة لا حد لها) بجعلنا راضين رضاً حقيقياً؟ رغم دفع المريضة للثمن على شكل تلك التضحية كأنه هو الأمر الطبيعي، ونومها فوق سرير ربما يصبح سرير الموت؟ تُرى هل يمكن أن يكون ما نعتقد نحن أنه سعادتنا الحالية، عبارة عن شيء زائل، عبارة عن شيء أكثر قرباً من النزوة، بدلا من الشيء الذي نؤمن نحن به؟...

كنتُ متردداً ومحتاراً مع مثل هذه الأفكار، أشعرُ أنا الذي أرهقتُ من السهر طوال الليل بجوار مريضة تأخذ غفوة قصيرة، بقلق من شيء آت قريباً ليهدد سعادتنا.

ولكن مرت تلك الأزمة خلال أسبوع واحد فقط.

في أحد الأيام أزالت ممرضة مظلة الشمس أخيراً، وتركت جزءاً من النافذة مفتوحاً دائماً. قالت ستسكو من فوق فراش المرض وكأنها قد بُعثت للحياة

من جديد وهي تشعر بزغللة من أشعة شمس الخريف الحقيقية التي تتسرب داخلة من النافذة:

«إنه شعور جميل»

كنتُ أقرأ في جريدة بالقرب من فراشها، فقلت دون وعي بنبرة سخرية وأنا أنظر إليها في مثل تلك الحالة، وأنا أفكر أن الأحداث التي تعطي صدمة كبيرة للإنسان تبدو بعد انتهائها على العكس كأنها تخص الغرباء:

«من الأفضل ألا تنفعلين حتى وإن جاء والدك»

تورّد وجهها قليلاً، وتقبلت سخريتي تلك ببراءة.

«عندما يأتي أبي في المرة القادمة سأقابله بوجه يبدو غير مبال»

«هذا إن كنتِ تستطيعين فعل ذلك...»

كان كل منا يراعي مشاعر الآخر بالتبادل هكذا، ونحن نتبادل المزاح معاً، ثم نضع معاً كل اللوم على والدها مثل الأطفال.

مرت أحداث ذلك الأسبوع دون أي تصنُّع، وكأنها ليست إلا مجرد خطأ بسيط حدث، ونحن بمشاعر مرحة غير متكلفة، وخرجنا سالمين دون أي خسائر من الأزمة التي بدت أنها قد هجمت علينا حتى الآن ليس فقط بدنياً ولكن نفسياً ومعنوياً أيضاً. أو على الأقل بدا لنا الأمر كذلك...

في إحدى الليالي، أثناء قراءتي لكتاب وأنا جالس بجوارها، فجأة، أغلقتُه، وذهبت إلى النافذة، وظللتُ لفترة أبدو أنني أفكر بعمق. ثم بعد ذلك رجعت مرة ثانية إلى جوارها. وأخذت الكتاب مجدداً، وبدأت أقرأه.

رفعت ستسكو وجهها وسألتني: «ما الذي حدث؟»

جاوبتها بعشوائية قائلاً: «لا شيء» ثم تظاهرت لثوانٍ أن الكتاب يأخذ انتباهي، ولكنني في النهاية بدأت الحديث قائلاً:

«بدأت مؤخراً التفكير في أن أبدأ العمل. لأنني لم أفعل أي شيء منذ أن أتيت إلى هنا»

أجابت بوجه جاد: «أجل، أجل. يجب عليكِ أن تعمل. لقد كان أبي أيضاً يبدي قلقه من ذلك. لا تجعل كل تفكيرك مقتصراً عليَّ أنا وحدي...»

«كلا، ولكنني أريد التفكير فيكِ أكثر وأكثر» كنت أستمر في الحديث وكأني أتكلم مع نفسي وأنا أبْعِد في التو والحال فكرة غامضة لرواية طرأت وقتها على ذهني فجأة: «إنني أفكر في كتابة رواية عنكِ أنتِ. فعلى ما يبدو أنني غير قادر على التفكير في أمر آخر حالياً. السعادة التي نتبادلها معا (متعة الحياة التي بدأت من حيث اعتقد الجميع أنها انتهت بالفعل) إنني أريد أن أبدل ذلك الشيء الذي لا يعرف أحد عنه شيئاً، الشيء الذي لنا نحن وحدنا، في شكل أكثر تأكيداً وأكثر وضوحاً. تفهمين، أليس كذلك؟»

أجابت سريعاً قائلة: «أفهم» ويبدو أنها كانت تتابع أفكاري وكأنها تتابع أفكارها الذاتية. ولكنها أضافت وكأنها تعاملني باستخفاف وقد لوت فمها ضاحكة:

«إن كان الأمر يخصني، فاكتب ما يحلو لك»

ولكنني مع ذلك أخذتُ كلامها ذلك على محمل الصراحة وقلتُ:

«أجل، سأكتبها كما يحلو لي... ولكن هذه المرة يجب أن تساعديني كثيراً»

«وهل ثمة ما أستطيع فعله؟»

«أجل، تستطيعين، أثناء انهماكي في العمل، عليك أن تكونين سعيدة من قمة رأسك إلى أخمص قدميك. يجب حقا أن تفعلي ذلك...»

وهكذا بدأتُ في آخر الأمر أذرع أرجاء غرفة ستسكو وكأنني أحاول أن أضغط على أفكاري التي تتدفق متتالية دون توقف، وأنا أشعر بغرابة أكثر أن ذهني يعمل بنشاط وحماس عندما نفكر معا نحن الاثنان هكذا بدلاً من التفكير في الأمر بمفردي شارداً.

«وجودك دائماً بجوار مريضة، سيجعل صحتك تسوء... ألا تحاول أن تذهب للتنزه؟»

أجبتُ بصحة جيدة وعيون مشعة:

«أجل، إن كنت سأعمل فيجب أن أخرج كثيراً للتنزه»

***

خرجت من تلك الغابة. واتسعت أمام عيني منطقة سفح جبل ياتسوگاتاكه اللا متناهية وقد تخطيتُ غابة أخرى يفصل بينها وبين تلك الغابة تيار مائي كبير، فرأيت قرية ضيقة تتاخم أطراف تلك الغابة ورأيت حقولاً مائلة، ثم رأيت جزءاً من مباني المصحة التي تمد عدداً من الأسقف الحمراء مثل الأجنحة تبدو صغيرة للغاية، ولكنني تعرفت عليها بوضوح.

أصبحت أتنزّه صباحاً كما يعن لقدمي تاركاً نفسي تعتمد تماماً على تفكيري دون أن أعرف أين أنا ولا أين مشيت، فكنتُ أضل طريقي من غابة إلى أخرى، والآن عندما اقترب أمام عيني منظر المصحة الصغير بسبب هواء الخريف الرائق. وأحسستُ لحظة رؤية عيني فجأة لمنظر المصحة كأنني شخص انفك عنه فجأة سحر كان يسحره. ثم بدأت بعد أن انفصلت عنها لأول مرة هكذا، أفكر في غرابة حياتنا التي نقضيها بلا وعي يوماً بيوم داخل تلك المصحة ونحن نُحاط بالمرضى داخل ذلك المبنى. ثم بدأتْ الرغبة الإبداعية التي تفور وتتدفق منذ فترة داخلي تستحثني أن أحول أيامنا العجيبة تلك إلى قصة عاطفية مؤثرة غرائبية، قصة في منتهى الهدوء كذلك... (لا أعتقد يا ستسكو أنه حدث أن تبادل اثنان الحب لهذه الدرجة من قبل مثلنا. فلم يسبق أن كنتِ موجودة قبل الآن. وكذلك لم أكن أنا أيضاً...)

إن أحلامي على ما يبدو كانت مترددة بلا نهاية، فوق الأحداث المتنوعة التي تقع لنا، فأحياناً تمر في سرعة هائلة، وأحياناً تظل ثابتة متوقفة في مكان واحد بلا حركة. كنت منفصلاً بعيداً عن ستسكو، ولكنني كنتُ أتوجه إليها بالحديث بلا انقطاع ثم أسمع ردودها عليَّ. كنتُ أعتقد أن هذه القصة التي تدور حولنا تستمر بلا نهاية وكأنها هي الحياة ذاتها. ثم تبدأ تلك القصة تعيش في غفلة مني بقوتها الذاتية، وتبدأ في التطور بإرادتها الخاصة دون أية مبالاة بي، ثم تتركني أنا الذي أميل إلى التوقف في مكان واحد، تتركني في ذلك المكان، ثم بدأت تلك القصة تصنع موتاً حزيناً لبطلتها المريضة وكأنها ترغب بنفسها في تلك النتيجة. تلك الفتاة التي مع توقعها لنهايتها، تستنفد كل قوتها التي بدأت تضعف، وتجتهد في أن تبدو بحيوية، تجتهد في محاولة الحياة بعزة نفس، الفتاة التي ماتت وهي تبدو سعيدة جداً، وهي تُحتضن بين ذراعيّ حبيبها وفقط تحزن لحزن ذلك الشخص الذي تُرك وحيداً، برزت صورة تلك الفتاة واضحة جلية وكأنها رُسمت في الهواء... (حاول الفتى أن يجعل حبهما أكثر نقاءً، فعرض على الفتاة المريضة أن يدخلا معاً مصحة في سفح الجبل، وعندما هددهما الموت بدأ الفتى تدريجياً يرتاب في هل إن استطاعا الحصول على السعادة التي يحاولان الحصول

عليها كاملة، سينالان في النهاية الرضا بها؟ ولكن، كانت الفتاة وهي تعاني سكرات الموت، تموت وهي راضية حقاً ممتنة للفتى احتضانه لها وعطفه عليها بكل إخلاص حتى النهاية. ثم استطاع الفتى أن يؤمن أخيراً بسعادتهما البسيطة، بعد أن ساعدته حبيبته الراحلة عزيزة النفس على ذلك...).

لقد بدا وكأن نهاية هذه القصة تعد لنا كميناً وتتوعدنا في مكان ما. لقد أثرت في قلبي صورة الفتاة تلك التي ضعفت وذبلت من الموت تأثيراً عنيفاً من حيث لا أتوقع. اجتاحني رعب وخجل لا يمكن وصفهما بالكلمات، وكأنني أفيق من حلم ما. ثم وكأنني أحاول أن أبعد تلك الأوهام بعيداً عني، نهضتُ باضطراب من فوق جذر شجرة البونا العاري الذي كنت أجلس عليه.

كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء بالفعل. برزت الجبال والغابات والقرى والحقول وكأنها هادئة ومستقرة وسط أشعة شمس الخريف المسالمة. لا ريب أن الجميع بدأوا في القيام بعاداتهم اليومية مرة أخرى داخل مبنى المصحة الذي بدا صغيراً من بعيد. بدأت أهبط من طريق الجبل مسرعاً، وكأنني فجأة لم أعد أحتمل الإحساس بالقلق عندما طرأت لذهني فجأة صورة ستسكو تنتظرني وقد تُركت بمفردها وحيدة وسط هؤلاء الغرباء.

عدتُ إلى المصحة مخترقاً الغابة الخلفية. ثم اقتربتُ وأنا ألف حول الشرفة، من غرفتها التي في أقصى طرف. وكانت ستسكو التي لم تتنبه لي بتاتاً، فوق السرير تلعب بأصابعها في أطراف شعرها مثلما تفعل دائماً، وتتأمل السماء بعيون تمتلئ بالحزن إلى حد ما. بعد أن كنتُ على وشك الطرق على زجاج النافذة بأناملي أعرضتُ عن الفكرة فجأة وأخذتُ أتأملها وهي على تلك الصورة. كانت تبدو وكأنها تمكنت أخيراً من مقاومة شيء ما يهددها، ولكنها بدت شاردة لدرجة تعطي انطباعاً بأنها هي نفسها على الأرجح لا تتنبه إلى أنها تتخذ تلك الوضعية... كنت أتأمل منظرها هذا الذي لم أعتدْه وأنا أشعر بأن قلبي ينقبض... وفجأة أشرق وجهها نوراً. رفعتْ وجهها، وبدا أنها تبتسم. والسبب أنها رأتني.

بعد أن دخلت من الشرفة، اقتربتُ منها وقلتُ:

«ما الذي تفكرين فيه؟»

أجابت بصوت بدا كأنه ليس صوتها قائلة: «لا شيء...»

ظللتُ كما أنا لا أقول شيئاً، وعندما صمتُّ وشعرتُ بالاكتئاب قليلاً، سألتني بصوت حميم وكأنها عادت إلى طبيعتها أخيراً: «لقد مر وقت طويل منذ خرجت، أين ذهبت؟»

أشرتُ بعشوائية إلى ناحية الغابة البعيدة التي تواجهنا مباشرة، وقلتُ: «إلى هناك»

«حقاً! إلى ذلك المكان البعيد؟ هل يبدو أنك ستستطيع العمل؟»

«أجل. نوعاً ما...» بعد أن أجبتُ إجابة في منتهى الفظاظة هكذا، عدتُ إلى صمتي لفترة، ثم بعد ذلك بدأت الكلام فجأة فسألتها بصوت محتد قليلاً:

«هل أنتِ راضية عن مثل هذه المعيشة؟»

بدت عليها الحيرة قليلاً من هذا السؤال غير المتوقع، ولكنها أعادت النظر إليَّ بثبات، ثم ردت على السؤال بما يبدو عليه الارتياب وهي تومئ برأسها وكأنها متيقنة تماماً من ذلك:

«لِمَ تسأل مثل هذا السؤال؟»

«لقد كنتُ أفكر أن هذه المعيشة هي بناء على نزوة مني أنا. ولأن هذا الأمر في منتهى الأهمية فأنا أشاركك هكذا في...»

قاطعتني فجأة قائلة: «أكره أن تقول ذلك. إن قولك هذا هو النزوة بعينها»

ولكنني مع ذلك أبديتُ لها أنني لم أقتنع بعد بما قالت. ظلت فقط تراقبني بتململ وأنا على هذه الحالة من الاكتئاب، ثم أخيراً قالت وكأنها لم تعد تحتمل أكثر من ذلك:

«ألا تدرك أنت أنني راضية إلى هذه الدرجة بوجودي هنا؟ أنا لم أرغب مطلقاً في العودة إلى البيت ولا مرة واحدة مهما كانت حالتي الصحية سيئة. لا أدري كيف سيكون حالي حقاً إن لم تكن أنت بجانبي؟ حتى منذ قليل مثلاً، أثناء غيابك في البداية كلما تأخرت عودتك فكرتُ أن فرحتي بعودتك ستكون مبالغاً فيها، فأجبرتُ نفسي على الصبر... ولكن عندما فات الوقت الذي كنتُ أظنُ أنك ستعود فيه ولم تعد، وصل قلقي في النهاية إلى منتهاه. ثم بعد ذلك، بدأت أحس أن هذه الغرفة التي كنا دائماً فيها معاً قد أصبحت غرفة غريبة عليَّ نوعاً ما، فأصبحتُ خائفة لدرجة الرغبة في القفز سريعاً

ومغادرة الغرفة... ولكن، بعد ذلك بدأتُ أخيراً أفكر في الكلمة التي قلتها لي، فبدأت أعصابي تهدأ قليلاً. ألم تقل لي في وقتٍ ما: إلى أي مدى سيكون أمراً رائعاً جداً إن تذكرنا حياتنا هذه بعد مرور وقت طويل من الآن»

أنهت كلامها وقد بدأ صوتها تدريجياً يصبح مبحوحاً، ثم نظرت إليّ بثبات وهي تلوي طرف فمها بما لا يمكن وصفه بأنه أحد أنواع الابتسامة.

وأثناء سماعي لكلماتها تلك، تأثر قلبي فجأة بدرجة لم أعد أستطيع احتمالها، فخفتُ أن تراني ستسكو بهذه الحالة من التأثر، ولذا خرجتُ بهدوء إلى الشرفة. ثم نظرتُ بكل كياني من فوق الشرفة إلى المنطقة المحيطة التي تشبه ذلك المساء من بداية الصيف الماضي الذي رسمنا فيه سعادتنا الكاملة، ولكن أشعة الخريف الصباحية تلك، تختلف تماماً عنها حيث إنها تمتلئ بأشعة أكثر عمقاً وأكثر برودة. أنظر وأنا أشعر بتأثر كبير لا أعرف كنهه يملأ صدري ويطغى على قلبي يشبه تلك السعادة التي أحسستُ بها وقتها...

الشتاء

٢٠ أكتوبر ١٩٣٥

بعد الظهر، تركتُ ستسكو كما هي العادة، وغادرتُ المصحة، وأنا أخترق الحقول التي يعمل بها المزارعون وهم منشغلون في الحصاد، وتخطيتُ الغابة البرية، وبعد أن هبطتُ إلى تلك القرية الضيقة الموحشة التي تقع في تجويف الجبل، عبرت الجسر المعلق فوق وادٍ صغير، ثم تسلقت جبلاً منخفضاً ممتلئاً بأشجار الكستناء على الجهة المقابلة من القرية، وجلست على السطح المائل في أعلاه. وهناك غرقتُ لساعات بنفس هادئة وروح مرحة في فكرة القصة التي أحاول البدء في كتابتها. ومن وقت لآخر وكأنه يتذكر ذلك، يهز أحد الأطفال شجرة كستناء فتسقط كمية من الثمار عند موضع قدميّ وأندهش من ذلك الصوت الضخم الذي يتردد صداه في كامل أرجاء الوادي...

كانت مثل تلك الأشياء التي حولي والتي يجب أن أراها وأسمعها، تبوح بأن ثمارنا نحن الحية قد نضجت بالفعل. وكنتُ أحب ذلك الشعور الذي كأنه يحثني على سرعة قطفها.

أخيراً مالت الشمس للغرب، وعرفت أن قرية الوادي قد دخلت بالكامل وسريعاً في ظلال الجبل الذي على الجهة الأخرى والذي يمتلئ بالأشجار البرية، نهضتُ واقفاً في هدوء، وهبطتُ من الجبل، ثم عبرت الجسر المعلق مرة ثانية، دون أن يكون هناك ما أعمله، وصوت السواقي التي تدور بلا انقطاع يتردد صداه صاخباً، وبعد أن أخذتُ دورة كاملة حول القرية الضيقة، عند حافة غابة الصنوبر الساقطة أوراقها التي تنتشر وتمتد حول منطقة سفح سلسلة جبال ياتسوگاتاكه، رجعتُ إلى المصحة بخطوات مسرعة وأنا أفكر أن ستسكو قد بدأت التململ أخيراً وهي تنتظر عودتي.

٢٣ أكتوبر

قرب الفجر، استيقظتُ مندهشاً من أصوات مريبة شعرتُ أنها قريبة مني. وهكذا ظللتُ لفترة أصغي السمع، ولكن كانت المصحة بأكملها هادئة كالأموات. وبعد ذلك صفا ذهني إلى حد ما، فلم أستطع العودة للنوم مجدداً.

رحتُ أتأمل من خلال زجاج النافذة الملتصقة به حشرات العثة، سماء الفجر التي ما زالت تلمع بها نجمتان أو ثلاث نجمات في خفوت. ولكن أثناء ذلك بدأت أشعر في ذلك الفجر بوحدة لا يمكن وصفها، وعندما نهضتُ من الفراش بهدوء، وكأنني أنا نفسي لا أدري ماذا أنوي فعله، ذهبتُ إلى الغرفة المجاورة وأنا حافي القدمين. وهكذا وأنا أقترب من السرير، انحنيت وتأملت وجه ستسكو النائم. وعندها وعلى غير المتوقع فتحت ستسكو عينيها على وسعهما وسألتني في ريبة وهي تنظر تجاهي لأعلى: «ماذا حدث؟»

قلت وأنا أتبادل معها النظر: لا شيء، ثم بعد ذلك انحنيت بجسدي فوقها في هدوء ثم ضغطتُ وجهي في وجهها تماماً وكأنني لم أعد أستطيع التحمل أكثر من ذلك. فقالت وهي تحرك وجهها قليلاً وتغمض عينيها: «يا لبرودة خديك!» فشممتُ رائحة شعرها قليلاً. وهكذا ظللنا لوقت طويل نلمس خدينا معاً بهدوء ويشعر كل منا بأنفاس الآخر.

قالت هامسة وهي تنظر إليّ وعينها رفيعة مشرقة: «أوه! لقد سقطت كستناءة مرة ثانية».

«آه. هل كانت تلك كستناءة؟ لقد استيقظتُ بفضلها منذ قليل»

وأنا أقول ذلك بصوت مرتفع قليلاً، تركتُ يدها بهدوء، ومشيت في اتجاه النافذة التي كان النور يدخلها تدريجياً وخلسة، ثم استندتُ بجسمي على تلك النافذة، وأنا أترك شيئاً ساخناً وغير معروف من أي العينين قد تغلغل ينتقل إلى خدي كما يحلو له، كنتُ أنظر إلى عدد من الغيوم في ظهر الجبل البعيد الثابتة دون حركة، والتي بدأت تلتحف ألواناً حمراء معكرة، ثم بدأت تُسمع أصوات أخيراً من ناحية الحقول الزراعية...

قالت ستسكو بصوت خفيض من على سريرها: «فعلك هذا سيجعلك تصاب بالبرد»

فنظرتُ تجاهها وأنا أرغب في الرد عليها رداً سريعاً خفيفاً بنبرة مريحة. ولكن عندما تلاقت عيناي مع عينيها المفتوحتين على اتساعهما، لم أستطع إخراج مثل تلك الكلمات. وهكذا ابتعدتُ عن النافذة في صمت، ورجعتُ إلى غرفتي.

ثم بعد مرور دقائق على ذلك، سعلت المريضة سعالاً عنيفاً مثل الذي تسعله في الفجر وكأنها لم تستطع دفعه. وسمعتُ ذلك السعال بمشاعر قلقة لا يمكن وصفها بأي وصف وأنا أدخل في فراشي مرة أخرى.

٢٧ أكتوبر

قضيتُ عصر الْيَوْمَ أيضا في الجبال والغابات.

لا تغادر المواضيع رأسي طوال اليوم. الموضوع الرئيس للخطيبين الحقيقيين (ما درجة السعادة التي يمنحها خطيبان كل منهما للآخر أثناء حياتهما القصيرة جدا؟ منظر شاب وفتاة في ربيع عمريهما يقفان حانِيَيْ رأسيهما في هدوء أمام القدر الذي تصعب مقاومته، ويتبادلان تدفئة قلبيهما وجسديهما) يظهر أمام عيني بوضوح منظرنا كشخصين تبدو عليهما الوحدة والوحشة ومع ذلك لا ينفي ذلك استمتاعهما إلى حد ما. ما الذي يمكن لي أن أصفه مع وضع ذلك في الاعتبار؟

عندما أعود بخطوات سريعة مثل كل مرة، في وقت الغروب من غابة الصنوبر الخضراء المائلة على جانبها والتي اصفرت ذابلة تماماً في سفح الجبال وتبدو وكأنها بلا نهاية، أتعرف من بعيد على امرأة شابة طويلة القامة تقف بمفردها وتستحم بأشعة الشمس المائلة في أطراف الغابة البرية التي أصبحت في خلفية المصحة بالضبط جاعلة شعرها يتلألأ ساطعاً يبهر العيون. توقفتُ قليلاً عن السير. كانت تلك المرأة هي ستسكو على ما يبدو. ولكن عندما أنظر إليها وهي بمفردها في حالتها تلك، ولأنني لم أعرف حتى النهاية أهي ستسكو أم لا؟ لذا كنت فقط أسرع في خطاي أكثر، ولكن عندما اقتربت تدريجياً اكتشفت أنها ستسكو فعلاً.

هرعت إلى جوارها وسألتها وأنفاسي تتقطع: «ماذا حدث؟»

أجابت ستسكو وهي تضحك وقد توّرد خداها قليلاً: «لقد قررتُ أن أنتظرك هنا»

نظرتُ إلى وجهها من الجانب وقلتُ: «وهل يُسمح لكِ بمثل هذا التهوُّر؟»

قالت محاولة أن تُخرج صوتاً مرحاً بشوشاً: «لا مانع من فعل ذلك مرة... إضافة إلى ذلك أنا أشعر اليوم بتحسن كبير» ثم ظلت تنظر ناحية سفح الجبل الذي عدتُ منه إلى هنا وأضافت: «لقد كنت أراك وأنتَ تأتي من مسافة بعيدة جداً»

لم أقل شيئاً بل وقفت بجوارها وظللتُ أنظر إلى نفس الاتجاه.

قالت ستسكو بصوت مرح بشوش مرة أخرى: «لم أكن أعرف أنه عند الخروج إلى هذا المكان يمكن رؤية جبال ياتسوگاتاكه بهذا الوضوح»

«أجل» بعد أن أجبت بهذا الرد الذي بدا وكأنني لا أهتم، وأثناء مشاهدتي للجبل بجوارها، كما أنا هكذا، بدأت تأتيني فجأة مشاعر مختلطة وعجيبة.

«اليوم أول مرة لنا ننظر للجبل معاً هكذا. ولكنني أشعر نوعاً ما أننا سبق لنا أن نظرنا إليه معاً بهذا الشكل مرات عدة من قبل»

«ولكن ما من أي احتمال لحدوث ذلك»

«كلا، حقاً... لقد انتبهت الآن أخيراً... لقد كنا ننظر معاً هكذا منذ زمن بعيد إلى هذا الجبل ولكن من الجهة المقابلة تماماً. كلا عندما كنا ننظر معاً إلى هذا الجبل وقت الصيف كانت الغيوم تحجبه فلم يكن يُرى منه شيء تقريباً... ولكن بعد مجيء الخريف، وذهبتُ إلى هناك بمفردي، في نهاية الأفق البعيد على الجهة الأخرى، تمكنتُ من رؤية هذا الجبل بعيداً ولكن من الناحية المقابلة. ولكنني وقتها لم أكن أعرف ما اسم هذا الجبل الذي يُرى على البعد، ولكن يبدو أنه هو هذا الجبل بالتأكيد. من الناحية العكسية بالضبط... ألا تتذكرين يا ستسكو تلك المراعي التي تنبت فيها غابات الغاب بكثرة؟»

«بلى أتذكر»

«ولكن في الواقع الأمر غريب. فها نحن أنا وأنت نقيم حالياً هكذا عند سفح ذلك الجبل دون أن نتنبه إلى أي شيء...» قبل عامين بالضبط، في آخر يوم من أيام الخريف، ونحن نتأمل تلك الجبال من بعيد التي تُرى بوضوح فوق خط الأفق لأول مرة من بين حشائش الباماس التي نبتت بكامل سطح الأرض ونحن نشعر بسعادة لدرجة الحزن، ظهر زاهياً في عيني منظري أنا نفسي لدرجة الاشتياق إليه، وأنا أرى حلم أننا نستطيع أن نكون نحن الاثنان معاً بالتأكيد في يوم ما.

سقطنا في بحور الصمت. تقطع أسراب الطيور التي على ما يبدو أنها طيور مهاجرة عرض السماء طائرة في هدوء، وأنا أتأمل سلسلة الجبال المتراصة جنباً إلى جنب، بمثل تلك المشاعر المحبة التي تشبه الأيام الأولى، ظللنا واقفين بثبات كما نحن تتدافع أكتافنا ببعضها البعض. وهكذا تركنا ظلالنا التي أصبحت تزداد طولاً تدريجياً تزحف كما يحلو لها فوق الأعشاب.

وفي النهاية، بدا أن الريح بدأت تهب قليلاً، وبدأت الغابة البرية التي في ظهرنا بالضجيج فجأة. فقلتُ لها وكأنني تذكرت فجأة: «لقد حان وقت العودة»

كنا قد دخلنا في عمق الغابة البرية التي تتساقط فيها الأوراق بلا انقطاع. كنتُ أتوقف من حين لآخر، وأتركها تتقدم في السير أمامي بمسافة قصيرة. فاضت الذكريات الصغيرة العديدة للأوقات التي مشينا فيها في الغابة، في صيف العام قبل الماضي، حين كنتُ أتعمد أن أتركها تمشي أمامي بمقدار بضع خطوات، فقط بسبب الرغبة في رؤيتها جيداً، وملأت تلك الذكريات ما في داخلي لدرجة كانت على وشك أن تخنق قلبي.

٢ نوڤمبر

في الليل، قربتنا إضاءة واحدة من بعضنا البعض، تحت تلك الإضاءة كنا معتادين على عدم التشاحن بالقول معاً، وكنا نستمر في كتابة حكايتنا التي جعلنا موضوعها الرئيس هو سعادتنا الحية بمثابرة، كانت ستسكو تنام داخل السرير المعتم في ظل غطاء المصباح في هدوء تام، لدرجة لا أعلم أهي داخله أم لا؟ ومن وقت لآخر كنت أرفع وجهي خفية وأنظر في اتجاهها، فأجدها تنظر إليَّ بثبات وكأنها كانت منذ مدة طويلة مستمرة في النظر تجاهي. كانت نظرة تمتلئ بمشاعر الحب التي وكأنها لا تحتمل الرغبة الشديدة في أن تقول لي: (بالنسبة لي يكفيني فقط أن أكون بجانبك هكذا) آه، كم جعلتني أؤمن بالسعادة التي نمتلكها نحن الاثنان الآن! وكم ساعدتني أنا الذي أجتهد هكذا من أجل إعطاء شكل واضح لذلك الحب!

١٠ نوڤمبر

جاء الشتاء. تمتد السماء، وتقترب الجبال أخيراً. ثمة أوقات تظل الجهة العليا فقط من تلك الجبال، فيها ما يبدو أنها غيوم ثلجية دائمة لا تتحرك. تمتلئ أعلى الشرفة بعصافير لا أشاهد مثلها دائماً وربما تكون قد أتت من الجبال في صباح مثل هذا تطاردها الثلوج. تختفي مثل تلك الغيوم الثلجية، ثم تصبح أحياناً أعالي الجبال فقط بيضاء باهتة لمدة يوم تقريباً. ثم في ذلك الوقت، تقف تلك الغيوم في قمم بعض تلك الجبال وكأنها باقية.

قبل سنوات عدة، كنتُ كثيراً ما أتذكر وقتما كنتُ أحلم محباً لذلك بمعيشتي مع فتاة شابة جميلة نحن الاثنان فقط في انفصال كامل عن المجتمع في مثل هذه المنطقة الجبلية ذات الشتاء الموحش متحابين لدرجة الشعور بانفطار القلب. كنتُ أرغب منذ طفولتى فى محاولة إعادة بعث الحلم غير

المحدود تجاه حياة حلوة الطعم، داخل هذه الطبيعة القاسية المتوحشة التي يخشاها البشر، كما هو تماماً دون أي نقصان. ثم من أجل تحقيق ذلك كان من الضروري أن تكون منطقة جبلية موحشة في وقت شتاء حقيقي مثل هذا...

... في وقت قارب فيه الليل على الانتهاء، استيقظتُ أنا في هدوء أثناء فترة نوم تلك الفتاة المريضة القصيرة، وذهبت منطلقاً بحيوية ونشاط خارجاً من الكوخ الجبلي إلى وسط الثلوج. تتألق الجبال في المنطقة المحيطة، في ألوان وردية وهي تستحم بأشعة الفجر. اشتريت لبن عنزة حُلِب لتوه من بيت مزارع بالجوار وعدت إلى الكوخ وأنا أوشك على التجمد من البرد. ثم بعد ذلك وضعت بنفسي الحطب في المدفأة. وأخيراً بدأ ذلك الحطب في الاشتعال مصدراً صوت طقطقة ذات حيوية ونشاط، وفي الوقت الذي استيقظت الفتاة أخيراً بسبب ذلك الصوت، كانت يدي قد تبلدت بالفعل من البرد، ولكن، بما يبدو متعة حقيقية، أنني أكتب تلك الحياة الجبلية التي نعيشها هكذا كما هي بتفاصيلها...

تذكرتُ هذا الصباح مثل هذا الحلم الذي حلمته منذ بضع سنوات، وأنا أتخيل أمام عيني منظراً للشتاء يشبه لوحة منحوتة على الخشب لا يحتمل وجودها في أي مكان، أخذت أغير أماكن الأثاث المتنوع داخل ذلك الكوخ الجبلي المصنوع من الخشب الأصلي، وأنا أتناقش مع نفسي بشأن ذلك. وفي النهاية، تمزقت تلك الخلفية إرباً إرباً، وهي تذهب مختفية في غموض، فقط أمام عيني، وكأنه ذلك فقط قد ظهرت من ذلك الحلم وتشكلت في الواقع، ويتبقى فقط الجبال التي تراكمت فيها الثلوج بكمية ضئيلة فقط، والأشجار الواقفة في عريها، والهواء البارد...

بعد أن انتهيتُ من تناول الطعام وحيداً، أزحت المقعد إلى جوار النافذة وقد غرقتُ في تلك الذكريات، نظرت وقتها فجأة، تجاه ستسكو التي انتهت أخيراً من الطعام ونهضت فوق الفراش تتأمل الجبال بنظرات شاردة من عينيها اللتين تعانيان من الإرهاق، وبدأتُ أتأمل أنا بتألم على غير العادة ذلك الوجه الذابل المرهق الذي تشابك فوقه الشعر وتعقد قليلاً.

توجهتُ نحو ستسكو بالحديث بمشاعر تمتلئ بما يقترب من الندم نوعاً ما وأنا لا أستطيع كتم رغبة القول: «تُرى هل حلمي هذا هو الذي اصطحبك حتى هذا المكان؟ إن العمل قد سلب قلبي تماماً مؤخراً رغم أن الحال وصلت إلى هذا الحد. وحتى في الوقت الذي أكون فيه بجانبك هكذا، فأنا لا أفكر مطلقاً في أمرك حالياً. ومع حدوث ذلك، فأنا أثناء عملي أفكر فيك أكثر وأكثر، وأقول لكِ وأسمعكِ ثم بعد ذلك أقول لنفسي وأسمعها. وبهذه الحال

أصبح في لمح البصر أعجب بنفسي، وأبدأ هكذا في إضاعة الوقت في التفكير في أحلامي أنا المملة أكثر من التفكير في أمرك أنتِ...»

تُرى هل انتبهتْ ستسكو إلى نظراتي تلك التي تريد التحدث؟ إنها تنظر نحوي بنظرات جادة فوق فراشها ولا تبتسم. كانت عادتنا التي نشأت وقتها هي أن ننظر لبعضنا البعض وقتاً أطول بكثير مما سبق، نظرات وكأن كلاً منا يُقيّد الآخر.

١٧ نوفمبر

سأنتهي من كتابة المسودة الحالية خلال يومين أو ثلاثة أيام على الأرجح. فإن واصلت الكتابة هكذا عن حياتنا المعيشية هذه فلن يكون لها نهاية. ومن أجل الانتهاء مؤقتاً من الكتابة على أي حال، يجب عليّ أن أعطي لها خاتمة ما، ولكنني لا أريد أن أعطي خاتمة أياً كانت لحياتنا هذه التي ما زلنا نحياها معا حتى الآن. كلا، على الأرجح أنني لن أستطيع فعل ذلك. على العكس من الأفضل أن أنهيها كما نعيشها الآن.

كما نعيشها الآن؟ إنني أتذكر الآن كلمات قرأتها في رواية ما تقول: «ما من شيء يعيق السعادة إلا ذكريات الماضي السعيدة». تُرى هل بدأ يتغير ما نعطيه لبعضنا البعض الآن ليصبح شيئاً آخر مختلفاً عن السعادة التي أعطاها كل منا للآخر في الماضي؟ تغير إلى شيء يشبه تلك السعادة، ولكنه يختلف عنها اختلافاً كبيراً، إلى شيء مؤلم يخنق القلب أكثر وأكثر. تُرى هل سأستطيع حقاً اكتشاف نهاية مناسبة لقصة سعادتنا؟ أن ألاحق مباشرة مثل هذا المنظر الحقيقي الذي لا يظهر حقاً ظهوراً كاملاً على سطح حياتنا؟ لسبب لا أعلمه أشعر دائماً أن شيئاً يحمل عداء تجاه سعادتنا تلك، مختبئاً في أحد جوانب حياتنا ولا أستطيع أن أجعله واضحاً جلياً...

أطفأتُ الإضاءة وأنا أفكر بمشاعر لا تهدأ في ذلك الأمر، ثم مررت بجوار المريضة التي نامت بالفعل، فتوقفتُ فجأة لأراقب طويلاً وجهها النائم الذي برز هو فقط أبيض خافتاً في وسط الظلام. كان تجويف العينين الضئيل يرتجف من وقت لآخر ارتجافاً عصبياً، مما أوحى لي أنها مهددة من شيء. تُرى هل كان قلقي أنا نفسي فقط الذي لا يمكن وصفه هو الذي يجعلني أشعر بذلك الشعور؟

٢٠ نوفمبر

جربت أن أعيد قراءة المسودة التي كتبتها حتى الآن كاملة. كان هدفي من القراءة أن أكون راضيا إلى حد ما عمّا استطعتُ كتابته إن كانت هذه هي النتيجة.

ولكن بخلاف ذلك، بدأت أكتشف وأنا مستمر في القراءة جانباً مني يبدو في قلق حقيقي لم أكن أتوقعه. وهو أنني شخصياً لم أعد أستطيع تذوق «سعادتنا» التي تعد الموضوع الرئيس لتلك القصة تذوقاً كاملاً. ثم بدأت أفكاري تبتعد عن القصة ذاتها. (لقد استطعنا أن نؤمن بقدرتنا على أن نتبادل إسعاد أنفسنا بطريقة فريدة. وهي أن نتذوق معاً الحياة البسيطة التي نسمح بها نحن أنفسنا لأنفسنا داخل تلك القصة. كنتُ أعتقد أنني أستطيع تقييد قلبي بهذا فقط على الأقل... ولكن تُرى هل كان هدفنا أعلى من اللازم؟ ثم هل أفرطتُ أنا نفسي في التقليل من رغبات حياتي؟ ومن أجل ذلك يبدو قيد قلبي الآن على وشك أن ينكسر هكذا؟) ظللتُ أفكر دون أن أرتب المسودة التي تركتها كما هي ملقاة بإهمال فوق المكتب. (يا لستسكو المسكينة... لقد أدركتْ تلك الفتاة وسط صمتي رغبات حياتي تلك التي كنتُ أنا نفسي أتظاهر بعدم الانتباه إليها، ولا يمكنني إلا أن أرى أنها تُظهر لي مشاعر التعاطف. وكان ذلك سبباً في بداية معاناتي وعذابي هكذا... تُرى لِمَ لا أستطيع أن أخفي منظري هذا عنها؟ لماذا أنا بهذا الضعف؟)

عندما نقلت نظري إلى المريضة التي أغمضت عينيها إلى النصف منذ فترة تحت ظل الإضاءة فوق السرير، أحسستُ بما يشبه اختناقاً في التنفس. ابتعدتُ عن الإضاءة، وذهبتُ مقترباً من الشرفة في هدوء. كانت ليلة ذات قمر ما زال صغيراً. مجرد أنه يجعلنا نستطيع التفرقة البسيطة بين حواف الجبال المغطاة بالغيوم والهضاب والغابات. أما غير ذلك من أجزاء فكانت جميعها ذائبة تقريباً داخل الظلام المشبع بلون أزرق بارد. ولكنني كنتُ أرى شيئاً مختلفاً عن كل ذلك، كنتُ أعيد من جديد داخل قلبي بوضوح تام من ذاكرة لم يختف منها أي شيء بعد، بعث تلك الجبال والهضاب والغابات التي كنا نتأملها نحن الاثنان في غروب أحد أيام بدايات الصيف ونحن نحمل تعاطفاً لدرجة مؤلمة شاعرين أنه بإمكاننا امتلاك تلك السعادة كما هي حتى النهاية. لقد أصبح ذلك المشهد جزءا لا يتجزّأ من وجودنا على الدوام لأنني كنتُ حتى الآن أعيد إحياءه هكذا مرات عديدة، لدرجة أننا لا نستطيع تقريبا رؤية منظرنا الحالي وزماننا الآني على أنها أمور تتغير مع تغير الزمن والفصول...

سألتُ نفسي: (تُرى هل يعني امتلاكنا مثل تلك اللحظات السعيدة أننا كنا نستحق الحياة معاً من أجلها فقط؟)

أحسستُ فجأة بصوت خطوات خفيفة خلفي. ولكنني لم أحاول الإلتفات للخلف، بل ظللت ثابتاً على وضعي كما أنا. وهي أيضاً لم تقل شيئاً، بل وقفت كما هي مبتعدة عني مسافة قصيرة. ولكنني كنتُ أشعر أنها قريبة مني جداً لدرجة إحساسي بأنفاسها. وتهب من حين لآخر رياح وهي تحتك بأطراف الشرفة دون أن تصدر صوتاً، ويُسمع صوت اقتلاع أشجار ذابلة يأتي من بعيد.

أخيراً تكلمت ستسكو وقالت: «ما الذي تفكر فيه؟»

ظللتُ لفترة دون أن أجيب على ذلك السؤال. ثم بعد ذلك التفتُّ فجأة ناحيتها، ورددتُ على السؤال بسؤال وأنا أضحك ضحكة غير مؤكدة: «ألستِ تعرفين بنفسك؟»

نظرت ستسكو إليَّ بحذر شديد وكأنها تخاف من فخ أو ما شابه.

وعندما رأيتُ ذلك بدأتُ القول في هدوء:

«ألستُ أفكر في عملي؟ لم أستطع التفكير في نهاية جيدة مهما حاولت. إنني لا أريد أن أنهيها كحياتنا التي عشناها بلا جدوى. ما رأيك؟ ألا تفكرين معي أنت أيضاً في ذلك الأمر؟»

ابتسمتْ ستسكو لي ابتسامة صافية. ولكن كانت تلك الابتسامة يبدو عليها بعض القلق.

أخيراً قالت بصوت خفيض: «ولكنني لا أعرف ما الذي تكتبه من الأصل»

قلتُ وأنا أضحك مرة أخرى ضحكة غير مؤكدة: «حقاً؟ حسنا سأقرأها لك في أقرب فرصة. ولكن لا يمكن أن أقرأها على أحد وهي في بدايتها لم تكتمل بعد»

عدنا إلى داخل الغرفة. وجلستُ أنا مرة ثانية بجوار الإضاءة، وعندما مسكتُ المسودة التي كانت ملقاة هناك ونظرتُ إليها، كانت ستسكو التي كانت ما زالت كما هي واقفة خلفي تختلس النظر إليها من وراء كتفي وهي تضع يديها على كتفي برفق. نظرتُ ملتفتاً إليها وقلتُ لها بصوت جاف:

«من الأفضل لكِ أن تنامي»

«أجل»

أجابت ستسكو بعفوية، وبعد أن رفعت يديها من على كتفي وهي مترددة قليلاً، ذهبتْ إلى فراشها.

بعد مرور دقيقتين أو ثلاث دقائق قالت ستسكو من داخل فراشها وكأنها تُحدّث نفسها: «يبدو أنني لا أستطيع النعاس»

«حسناً، هل أطفئ الإضاءة؟ فأنا لم أعد بحاجة إليها» أطفأتُ الإضاءة ثم نهضتُ وأنا أقول ذلك واقتربت من وسادتها. أمسكتُ بيدها وأنا أجلس على حافة السرير. وظللنا هكذا لفترة نتبادل الصمت وسط الظلام.

وبدا أن شدة الرياح تزداد قوة عمّا سبق. وكان يصحبها صوت يأتي من الغابة البعيدة دون انقطاع. ثم كانت الرياح تصطدم أحيانا بمباني المصحة فكانت إحدى النوافذ تصدر صوت ارتطام، وفي النهاية كانت نافذة غرفتنا تصر صريراً ضئيلاً. وظلت ستسكو ممسكة بيدي لا تتركها حتى النهاية وكأنها تبدي خوفها من تلك الأصوات. ثم بدت وكأنها تحاول التوحد مع تأثير ما داخلها وهي مغمضة العينين. وبعد فترة تراخت قليلاً قبضة يدها تلك. وبدا أنها تتظاهر بالنعاس.

«حسناً، هذه المرة دوري أنا...»

وأنا أهمس بهذا القول، حاولتُ أنا أفعل مثلها وأن أنام مع عدم وجود أية بوادر للنعاس، فذهبتُ إلى غرفتي الغارقة في ظلام حالك.

٢٦ نوفمبر

في ذلك الوقت، كنتُ كثيراً ما أستيقظ قبل شروق شمس الصباح. وكنتُ على الأغلب أنهض من الفراش في هدوء وأتأمل وجه ستسكو مُثبّتاً نظري عليها. ومع أن حافة السرير والزجاجات بدأت في الاصفرار تدريجياً، ومع ذلك كان وجهها فقط حتى النهاية أزرق زرقة شاحبة. (يا لها من إنسانة بائسة) كنتُ أنطق بتلك الكلمات أحياناً دون وعي مني وكأنها قد أصبحت «لازمة» كلامية لي.

هذا الصباح أيضاً استيقظتُ في وقت قريب من الفجر، ظللتُ أتأمل وجه ستسكو لوقت طويل، ثم تسللتُ خارجاً من الغرفة على أطراف أصابع قدميّ، وذهبتُ إلى الغابة الخلفية للمصحة التي أصبحت أشجارها ذابلة تماماً لدرجة

آن صارت مفرطة في عريها. تتبقى ورقة ميتة أو ورقتان على كل شجرة، كانت تقاوم بشدة السقوط من خلال الرياح. في الوقت الذي خرجتُ فيه في أطراف تلك الغابة الخالية، بدأت الشمس التي غادرت لتوها قمة جبل ياتسوگاتاكه، تتألق باحمرار زاهٍ أثناء نظري لكتل الغيوم التي تقف دون حركة متدلية كما هي في انخفاض فوق قمم الجبال المتراصة من الجنوب ومروراً بالغرب. ولكن يبدو أن أشعة مثل هذا الفجر لن تصل إلى سطح الأرض بسهولة. والآن، تظهر الأرض القاحلة والحقول والغابة الذابلة بسبب الشتاء المنحصرة بين الجبال، وكأنها انعزلت وتخلت عنها جميع الأشياء.

كنتُ أتجول هنا وهناك في أطراف غابة الأشجار الذابلة تلك، وأنا أدوس الأرض بقدمي أحياناً دون أي اعتبار للبرودة. أنا الذي كنتُ أتردد حائراً في التفكير في أفكار لا أستطيع بنفسي تذكر ماذا كنتُ أفكر فيه بالضبط، رفعتُ أثناء تفكيري ذلك رأسي فجأة، فرأيت السماء قد غُطّيت بالكامل بغيوم شديدة الظلمة في غفلة من الزمن بعد أن فقدت بريقها الأحمر. وعندما انتبهتُ إلى ذلك، وكأنني كنتُ أتوق إلى وصول أشعة الشمس الحمراء الجميلة التي كانت تحترق منذ لحظات إلى الأرض، عُدتُ بخطوات سريعة إلى المصحة، بمشاعر بدت فجأة متململة إلى حد ما.

كانت ستسكو مستيقظة بالفعل. ولكنها حتى بعد أن رأتني عدتُ واقفاً، لم تفعل إلا أنها رفعت عينها وألقت إليَّ بنظرة واحدة كئيبة سريعة. ثم كان لون وجهها أكثر شحوباً وزرقة عمّا كانت عليه منذ قليل وهي نائمة. اقتربتُ من وسادتها، وعندما حاولت تقبيل جبينها وأنا أعبث بخصلات شعرها، هزتُ ستسكو رأسها بحركة واهنة. نظرتُ أنا إليها بحزن دون أن أسألها ما بها. كانت تنظر إلى الهواء بعيون شاردة وكأنها تحاول ألا تنظر ليس إليَّ أنا ولكن على العكس إلى حزني هذا.

في ليل ذلك اليوم

كنت أنا الوحيد الذي بقي لا يعلم شيئاً. فبعد أن انتهى الكشف الصباحي، نادتني رئيسة الممرضات للحديث معها في الممر. وهناك علمتُ لأول مرة أن ستسكو بصقت دماً بكمية قليلة هذا الصباح دون أن أعلم. أخفت ستسكو عني ذلك الأمر. وأضافت رئيسة الممرضات أن بصق الدم ليس خطيراً لتلك الدرجة، ولكن ستحدد ممرضة ترافق ستسكو لفترة من الوقت للاحتياط فقط... ولم يكن أمامي إلا الموافقة على ذلك.

وتقرر أن أنتقل أنا إلى غرفة مجاورة تصادف أن تكون خالية في تلك الفترة فقط. وأنا حالياً أكتب يومياتي بمفردي أحس بالوحدة داخل غرفة تشبه تماماً في كل شيء الغرفة التي كنا نعيش فيها نحن الاثنان، ولكن بإحساس كأنني لم أخبره قط. وهكذا ومع أنني جالس منذ ساعات عدة، ولكن تبدو هذه الغرفة على أي حال وكأنها خالية. بل حتى الإضاءة كانت تشع ببرود وكأنه ما من أحد في هذا المكان.

٢٨ نوڤمبر

تركتُ المسودة التي اكتمل فيها العمل تقريباً، كما هي ملقاة فوق المكتب، دون أن أحاول أن ألمسها بيدي. قالت ستسكو إنه من أجل أن أنهيها كاملة، يجب أن يقيم كل منا بمفرده لفترة من الوقت.

ولكن، كيف وأنا الآن بهذه الحالة من مشاعر القلق، أستطيع الإحساس بمفردي بحالة سعادتنا تلك التي وصفتها في المسودة؟

كنتُ يومياً كل ساعتين أو ثلاث، أجلس لفترة بجوار وسادة ستسكو. ولكن لأن أسوأ شيء هو جعلها تتكلم، فكنتُ أغلب الوقت أجلس صامتاً دون قول شيء. وحتى عندما تكون الممرضة غائبة، كان كل منا يمسك يد الآخر في صمت، ونجتهد ألا تتلاقى أعيننا معا.

ولكن، عندما يحدث أن تتلاقى أعيننا لسبب أو لآخر، كانت وكأنها مثلما كانت تفعل في أول أيامنا، تُظهر ابتسامة ارتباك. ولكن كانت تبعد عينيها على الفور، وهي تنظر إلى الفراغ، وتنام في هدوء وسكينة دون إبداء أي قدر ولو قليلاً من التذمر إزاء معاناتها من تلك الحال. سألتني في إحدى المرات عن عملي أيسير على ما يرام أم لا؟ فهززتُ رأسي نافياً. وفي ذلك الوقت نظرتْ إليَّ نظرة أسى على حالي. ولكنها لم تعد تسألني بعد ذلك عن هذا الأمر. ثم يتشابه اليوم مع باقي الأيام، ويمر في هدوء مفرط وكأنه لم يحدث به أي أحداث.

ثم رفضتْ حتى أن أكتب أنا رسالة إلى والدها بدلاً منها.

في الليل، كنتُ حتى وقت متأخر من الليل لا أفعل شيئاً، بل كنت أنظر في شرود إلى ظلال الضوء الساقط من فوق الشرفة وهو يخفت مع ابتعاده تدريجياً عن النافذة، وأنا أشعر أن إحاطة الظلام بالمنطقة من الجهات الأربع يشبه إحاطته بقلبي من الداخل. وأنا أفكر ربما ستسكو أيضا لا تستطيع النوم لأنها تفكر في أمري...

١ ديسمبر

لا أدري ما السبب ولكن زاد عدد حشرات العُثة الذي يتجمع حولي في ألفة في هذا الوقت.

وفي الليل تطير تلك الحشرات التي لا أدري من أين أتت، وترتطم بعنف بزجاج النافذة المغلقة إغلاقاً محكماً، وتؤذي نفسها من خلال ذلك الارتطام، ومع ذلك لا تتوقف عن طلب الحياة حتى تصبح جسداً ميتاً وهي تحاول أن تفتح ثغرة في زجاج النافذة. حتى إن انزعجتُ منها، فأطفأتُ الأنوار ودخلت الفراش، يظل صوت رفرفة الأجنحة المجنونة باقياً لفترة، ثم يضعف تدريجياً، وفي النهاية تلتصق في مكان ما. وفي الصباح التالي، من المؤكد أن أعثر على جثث العثة تحت النافذة وقد أصبحت مثل ورق شجر ذابلة.

وهذه الليلة أيضاً طارت عثة داخلة الغرفة، وأخذت تدور وتلف كالمجنونة حول المصباح المواجه لي منذ فترة. وأخيراً سقطت فوق أوراقي وهي تصدر صوتاً. ثم تظل بلا حركة حتى النهاية. ثم تطير فجأة وكأنها تذكرت أخيراً أنها ما زالت حية. ولا يبدو إلا أنها لا تدري بالضبط ماذا تفعل. ثم في النهاية تسقط مرة ثانية فوق أوراقي مصدرة صوتاً.

وبسبب خوف غريب لا أحاول أنا أن أبعد تلك العثة، بل على العكس أتركها تلفظ أنفاسها الأخيرة كما هي فوق أوراقي.

٥ ديسمبر

في وقت الغروب، كنا نحن الاثنان بمفردنا. لقد ذهبت الممرضة المرافقة لتناول الطعام. وقد أوشكت شمس الشتاء على الاختفاء بالفعل خلف الجبل الغربي. ثم بدأت أشعتها المائلة تلك تنير فجأة الغرفة التي بدأت تبرد تدريجياً من الأعماق. كنتُ بجوار وسادة ستسكو، وأنا أضع قدمي فوق المدفأة، أنحني بجسمي فوق الكتاب الذي أمسكه في يدي. وعندها صرخت ستسكو فجأة صراخاً خافتاً:

«أوه، أبي!»

رفعتُ وجهي لا إرادياً تجاهها وأنا مندهش قليلاً. ورأيت عينيها تبرقان بريقاً غير معتاد. جربت أن أسألها دون تعمد وأنا أتظاهر بعدم سماعي صرختها الخافتة:

«ماذا قلت الآن؟»

ظلت ستسكو لفترة لا ترد. ولكن كانت عيناها على وشك التألق أكثر وأكثر.

«أترى هناك جزءا في الطرف الأيسر من ذلك الجبل المنخفض تنيره الشمس قليلاً؟» استجمعت ستسكو شجاعتها لتشير بيدها أخيرا من فوق سريرها ناحية ذلك الاتجاه، ثم وكأنها تحاول استخراج الكلمات التي يصعب النطق بها نوعاً ما، من مكمنها عنوة، وضعتْ تلك الأصابع هذه المرة على فمها:

«يتكون دائماً في هذا التوقيت شبيه لظل وجه أبي الجانبي هناك... انظر! ألا تلاحظ تكوّن ذلك الظل الآن في هذه اللحظة بالضبط؟»

لقد عرفت فوراً عندما تتبعت أصابعها ما يبدو أنه ذلك الجبل الذي تطلق عليه هي اسم الجبل المنخفض، ولكنني لم أستطع معرفة التعرجات الجبلية التي تبرزها بوضوح أشعة الشمس المائلة في تلك المنطقة.

«لقد اختفى الآن... آه، يتبقى فقط الجزء الذي يشبه الجبهة...»

وقتها أخيراً استطعت معرفة تعرجات الجبل التي تشبه جبهة والدها. لقد ذكرتني أنا أيضاً بجبهة والدها الصارمة. (تُرى هل هي تطلب والدها في داخلها حتى إنها تراه في مثل هذا الظل؟ آه، إنها لا تزال تشعر بوالدها وتستدعيه بكل كيانها...)

ولكن، بعد لحظة واحدة ملأ الظلام ذلك الجبل المنخفض تماماً. واختفت كل الظلال.

قلتُ بلا وعي أول كلمة طرأت لذهني وقتها: «تُرى هل تريدين العودة للبيت؟»

ثم بعدها مباشرة بحثتُ عن عيني ستسكو وأنا أشعر بالقلق. تأملتني ستسكو بدورها بنظرات من عينين باردتين تقريباً، ثم أبعدت فجأة تلك العينين وقالت بصوت مبحوح يتفاوت بين القدرة على سماعه وعدم سماعه: «أجل، نوعاً ما أرغب في العودة»

ابتعدتُ عن السرير وأنا أحرص على ألا أظهر وأنا أعض على شفتي ومشيت مقترباً من النافذة.

قالت ستسكو بصوت مرتعش من خلفي: «أنا آسفة... ولكن، هذا هو شعوري الآن، لفترة من الوقت فقط... ستزول هذه الرغبة سريعاً...»

شبكتُ ذراعيّ وأنا أقفُ بجوار النافذة دون كلام. تراكم الظلام بالفعل عند سفح الجبل. ولكن ما زال ضوء خافت يحيط بقمة الجبل. هجم عليّ فجأة خوف وكأن عنقي تُخنق. فالتفتُّ فجأة إلى ستسكو. كانت تغطي وجهها بكلتا يديها. وكأن أي شيء وكل شيء يُفقد من بين أيادينا، ونحن نمتلئ بمشاعر القلق، هرعتُ مسرعاً ناحية السرير، وأبعدتُ يديها عن وجهها عنوة. لم تحاول ستسكو أن تقاومني.

لم تتغير مطلقاً عمّا هي عليه في المعتاد؛ الجبهة العالية والعين التي تبدي بريقاً هادئاً وفمها الصارم، أحسستُ أنني أجد صعوبة في اختراقها أكثر وأكثر من المعتاد... وهكذا لم يكن بوسعي إلا الشعور بأنني على العكس طفل صغير خائف رغم أن الأمر لا يمثل شيئاً. وعندها فجأة كأنني استنفدتُ كل قوتي، سقطتُ على ركبتي بلا حول ولا قوة، ودفنتُ وجهي في حافة السرير.
وظللتُ لفترة طويلة كما أنا أدفن وجهي بالكامل في الفراش. وقد بدأتُ أشعر أن يد ستسكو تمسح برفق على شعر رأسي.

أصبحت الغرفة بالفعل غارقة في عتمة كاملة.

وادي ظلال الموت

١ ديسمبر ١٩٣٦ في قرية كارويزاوا

كانت هذه القرية التي أراها بعد غياب ثلاثة أعوام تقريباً، مدفونة تماماً في الثلوج. كما سمعت توقفتْ أخيراً اليوم الثلوج التي استمرت في الهطول على مدى أسبوع واحد فقط. وضعت فتاة القرية الشابة التي طلبتها لتقوم بأعمال المنزل هي وأخوها الصغير، أمتعتي فوق الزلاجة الصغيرة التي تليق بهذا الولد الصغير، وسحباها إلى الكوخ المقرر أن أقضي فيه ما تبقى من هذا الشتاء. كنتُ على وشك الانزلاق مرات عدة في منتصف الطريق وأنا أسير خلف تلك الزلاجة. لتلك الدرجة كانت الثلوج بالفعل قد تجمدت متصلبة في ظلال هذا الوادي...

يقع الكوخ الذي استأجرته في وادٍ أصغر داخل الجزء الشمالي من القرية، كانت تُبنى في ذلك الوادي منتجعات خاصة بالغرباء عن القرية منذ قديم الزمان، ويُفترض أنه يقع في أبعد الأماكن تطرفاً. وسمعت أن الغرباء الذين يأتون لقضاء الصيف هنا يسمون هذا الوادي باسم «وادي السعادة». تُرى أين يكمن «وادي السعادة» هذا في مثل هذا المكان الموحش المهجور والمنعزل؟ وأنا أعبر مشاهداً تلك الأكواخ المهملة التي تُركت جميعها الآن كما هي في الشتاء وقد دُفنت تحت الثلوج واحدة بعد أخرى، وأثناء ما كنتُ أصعد ذلك الوادي وأنا أميل إلى التأخر عن الاثنين، كنت فجأة على وشك أن أنطق بفمي الاسم المضاد تماماً لاسم هذا الوادي. ولكنني أرجعته في فمي لفترة وكأنني أحتار نوعاً ما، ولكنني غيرتُ رأيي مرة ثانية ونطقتُ به في النهاية. «وادي ظلال الموت» أجل، إن هذا الاسم بحق هو الذي يناسب هذا الوادي، أو على الأقل بالنسبة لي أنا الذي كنتُ على وشك العيش كالأرمل في معمعة مثل هذا الشتاء. وأثناء التفكير في هذا الأمر، وصلنا أخيراً إلى الكوخ الذي استأجرته وموقعه آخر الأكواخ. ثمة آثار أقدام كثيرة لا يُعرف أصلها وفصلها فوق الثلوج التي تحيط بذلك الكوخ المبني سقفه من لحاء الأشجار والملحقة به شرفة صغيرة كأنها على سبيل الاعتذار. دخلت الأخت الكبرى أولاً إلى ذلك الكوخ المغلق وأثناء فتحها الأبواب والنوافذ، كان الأخ الأصغر يعلمني ماهية آثار الأقدام المريبة تلك واحدة بعد أخرى، قائلاً هذه أرنب وتلك سنجاب والثالثة طائر تدرج... إلخ.

ثم وقفتُ بعد ذلك في الشرفة التي دُفنت تقريباً داخل الثلوج، وتأملتُ المكان من حولي. يصبح ظِل الوادي الذي صعدناه الآن، عند النظر إليه من

هناك، جزءاً من الوادي بهيئة صغيرة وجميلة بدرجة كبيرة. آه، ذلك الأخ الأصغر الذي عاد بمفرده قبلنا راكباً زلاجة الثلوج إياها، يظهر ويختفي من بين شجرة وأخرى من الأشجار العارية. ودعت منظره الظريف ذلك الذي اختفى أخيراً داخل غابة الأشجار الذابلة، في الوقت الذي أنهيت دورة واحدة من النظر إلى ذلك الوادي، ثم دخلت الكوخ للمرة الأولى لأنه قد بدا أنه أصبح جاهزاً بعد ترتيبه من الداخل. غُطيت حتى الجدران بالكامل بلحاء شجر الأرْز، وكان السقف مبنياً ببساطة أكثر مما كنت أتوقع لدرجة الاعتقاد أنه ليس به شيء، ولكن لم يترك عندي انطباعاً سيئاً. وصعدت مباشرة إلى الطابق الثاني لرؤيته، فكان كل شيء من الأسرّة وحتى المقاعد معداً لشخصين. وكأنها بالضبط معدة لي ولكِ. وعلى ذكر ذلك، هل تعلمين إلى أي درجة كنتُ أحلم في الماضي أن نعيش في مثل في هذا الكوخ الجبلي، أنا وأنتِ نواجه الوحدة معاً!

في المساء، جعلت فتاة القرية تعود لبيتها على الفور بعد أن انتهت من إعداد الطعام. ثم بعد ذلك قرّبت الطاولة الكبيرة لأضعها بجوار المدفأة بمفردي، وقررت أن أفعل كل شيء عليها هكذا بداية من الكتابة وحتى تناول الوجبات. وعندها انتبهتُ للمرة الأولى أن التقويم المعلق فوق رأسي لا يزال كما هو يشير إلى شهر سبتمبر، وعندما وقفت ونزعتها، وضعت علامة على تاريخ اليوم، حسناً، عندها فتحت هذه المفكرة للمرة الأولى بعد غياب عام كامل في الواقع.

٢ ديسمبر

يبدو أن إعصاراً جليدياً يضرب أحد الجبال في الجهة الشمالية من وقت لآخر. فقد اختفى جبل أساما، الذي كان يُرى أمس بوضوح وكأنه بين يد المرء، اليوم تماماً خلف السحب الثلجية، وبدا أن الجو عاصف في أعماقه، وحتى هذه القرية التي تقع عند سفح الجبل لاقت نصيبها من ذلك، فأحياناً ومع تسلل أشعة الشمس المشرقة، تتراقص الثلوج في الجو بلا انقطاع. وعندما تتجمع تلك الثلوج فجأة ودون موعد لسبب ما على طرف الوادي، تعصف الرياح الثلجية لبعض الوقت بشدة عارمة، مع أن السماء الزرقاء تبدو واضحة جلية على الناحية الأخرى من ذلك الوادي، في منطقة سلسلة الجبال المتصلة في أقصى الجنوب، حيث يقع الوادي بأكمله في الظل. ثم فجأة تظهر الشمس مرة أخرى بوضوح...

كنتُ أقضي طوال اليوم بمشاعر مضطربة نوعاً ما، لا تستكين بسبب أنني أذهب للنافذة لأتأمل منظر ذلك الوادي الذي لا يتوقف عن التغيير ثم أعود

سريعاً مرة أخرى إلى جوار المدفأة.

وفي الظهيرة، أتت إليَّ فتاة القرية التي حملت على ظهرها صرة مربوطة وترتدي جورباً دون حذاء وسط الثلوج. تبدو الفتاة وقد أصابها سفع الجليد من يديها وحتى وجهها، وتبدو أنها فتاة على سجيتها، وأفضل ما كان يناسبني فيها أنها قليلة الكلام. ومثلما حدث أمس جعلتها تعد الطعام فقط، وجعلتها تعود لبيتها بعد ذلك على الفور. ثم بعدما بدا أن يوماً آخر قد انتهى، أجلس شارداً لا أفارق جوار المدفأة دون فعل شيء أراقب نيران الحطب الذي يشتعل مصدراً طقطقة عندما تستحثه الرياح التي تهب من تلقاء نفسها.

جاء الليل وأنا على هذه الحال. وبعد أن تناولتُ وجبة العشاء الباردة، سكنتْ مشاعري بدرجة ما. ويبدو أن هطول الثلوج قد توقف دون أن تتفاقم، ومقابل ذلك بدأت الرياح في الهبوب. وعندما هدأتْ النيران قليلاً وبدأ صوت الطقطقة في الخفوت، بدأتُ أسمع صوت رياح تقترب فجأة، رياح تلك الرياح التي تجذب صوت غابات الأشجار الذابلة خارج الوادي من خلال تلك الفراغات.

ثم بعد ساعة واحدة فقط، وكنتُ في حالة من الدوار بسبب حرارة النار التي لم أكن معتاداً عليها، خرجت من الكوخ لكي أعرض جسمي للهواء الطلق. وهكذا بعد أن ظللتُ أمشي في دورة حول البوابة في الظلام الحالك، ولأن وجهي أخيراً قد أصبح بارداً نوعاً ما، وعندما كنت على وشك الدخول إلى الكوخ من جديد، وعندها انتبهتُ للمرة الأولى على الضوء المتسرب من الكوخ، إلى أن ثلوجاً خفيفة لا تزال تهطل حتى الآن بلا انقطاع. وعندما دخلت الكوخ من أجل أن أجفف جسدي الذي ابتلَّ قليلاً، اقتربت مرة ثانية من النيران. ولكن عندما عرضت جسدي مرة ثانية للنيران هكذا، أصبحت شارداً وكأنني على حين غفلة نسيت أنني أجفف جسدي وجعلت أحد أجزاء مخي يتذكر من جديد ويعيد بعث ذاكرة بعينها. في هذا الوقت تقريباً من العام الماضي، حول المصحة الجبلية التي كنا نحن الاثنان فيها، كانت السماء تمطر ثلجاً في وقت متأخر من الليل بالضبط مثل هذه الليلة. كنت أقف مرات عدة عند مدخل تلك المصحة، غير قادر على الانتظار حتى مجيء والدك الذي استدعيته ببرقية. وأخيراً وصل الوالد مع اقتراب منتصف الليل. كانت تحوم حول شفتيكِ شبه ابتسامة خافتة وأنتِ تنظرين إلى والدك نظرات سريعات متتالية. وظل والدك يراقب بثبات وجهك هذا الذي بلغ الشحوب به منتهاه دون أن ينطق بكلمة. ومع فعله هذا وجّه نحوي من وقت لآخر نظرات في غاية القلق. ولكنني تظاهرت بعدم الانتباه إلى ذلك، وظللتُ فقط أنظر

تجاهك أنتِ دون هدف. وأثناء ذلك، أحسستُ أنك غمغمتِ فجأة بقول شيء ما بفمك، وعندما ذهبتُ مقترباً منك، بصوت لا يتضح هل هو يُسمع أولا يسمع وجهتِ كلامك لي قائلة: «إن شعر رأسك عليه ثلج...» وهكذا الآن وأنا قابع وحيد بجوار نار المدفأة، وكأن تلك الذكريات التي عادت للحياة فجأة تدعوني لذلك، رفعتُ يدي ووضعتها على شعر رأسي، فوجدته مبتلاً بللاً خفيفاً وبارداً. ولم أكن أدرك ذلك ولو بقدر قليل حتى وقت رؤيتي له هكذا...

٥ ديسمبر

خلال هذه الأيام القليلة، كان الجو رائعاً لدرجة يصعب وصفها. تدخل أشعة الشمس إلى الشرفة لتملأها، والجو دافئ جداً بلا رياح. وأخيراً في صباح اليوم أحضرتُ طاولة ومقعداً صغيراً، وبدأت فطوري وأنا أرى أمامي الوادي الذي دُفن سطحه تماماً تحت الثلوج. ومع تفكيري أن متعتي بمفردي هكذا خسارة إلى حد ما، وأثناء تناولي وجبة الإفطار عندما نظرتُ إلى جذر شجيرة ذابلة أمام عيني مباشرة، عثرتُ على طائري تدرُج جاءا دون أن أنتبه. وكانا زوجين يمشيان بتثاقل أثناء بحثهما عن الطعام وسط الثلوج...

ثم تخيلتُ وكأنك ما زلتِ داخل الكوخ مثلاً، فتحدثتُ إلى نفسي بصوت خفيض، وأنا أراقب بثبات التدرج وأنا أكتم أنفاسي:

«انظري! تعالي انظري! لقد جاء طائر تدرج»

فكنتِ تحرصين على ألا تُصدرين صوت أقدامك سهواً، إلى هذه الدرجة كنتِ تهتمين...

وفي تلك اللحظة، سقطت الثلوج من فوق سقف أحد الأكواخ وهي تصدر صوتاً تردد صداه في كامل أرجاء الوادي. ونظرتُ مأخوذاً إلى طائري التدرج اللذين قفزا يطيران معاً وكأنهما طارا من تحت أقدامي وقد اندهشتُ بشدة. وقتها في نفس اللحظة تقريباً، أحسستُ إحساساً حقيقياً لدرجة مؤلمة أنك تقفين بجواري بعادتك التي أنت عليها دائماً، تحملقين فيَّ أنا الذي وقفتُ منبهراً مندهشاً فاتحاً عيني على وسعهما دون أن تقولي شيئاً.

بعد الظهر، نزلتُ لأول مرة من الكوخ الجبلي، وتجوّلتُ في جولة حول القرية التي دُفنت في الثلوج. بدت لي الغابة التي التحفت بالثلوج والطرقات والأكواخ التي تسمّرت كلها وكأنني رأيتها من قبل، مع أنني لا أعرف تلك القرية إلا في الصيف والخريف فقط، ولكنني لم أستطع مهما حاولت أن أتذكر منظرها من قبل. لقد بُنِيت كنيسة كاثوليكية صغيرة في وقت ما، دون

علمي، بمحاذاة طريق الساقية الذي كنتُ أحب السير حولها فيما سبق. بل لدرجة أن تلك الكنيسة الجميلة التي اِسْتُخدم في بنائها خام الخشب الأبيض، بدأت ألواح جدرانها تسوّد بالفعل تحت ذلك السقف المسنون الملتحف بالثلوج. وجعلني ذلك أبدأ في الاعتقاد أكثر وأكثر أنني أجهل تلك المنطقة بأكملها ولم أرَها من قبل. وبعد ذلك جربت أن أذهب وأنا أفرق بين الثلوج الكثيفة جداً التي لا تزال متبقية إلى داخل تلك الغابة التي سبق وأن صحبتِك إليها ومشينا فيها كثيراً معاً. وأخيراً تعرّفتُ على شجرة صنوبر أحسستُ أن لها ذكرى داخلي. ولكن عندما اقتربت منها في النهاية، صرخ طائر صراخاً حاداً من داخل تلك الصنوبرة. وعندما توقفتُ أمامها، طار فجأة طائر بلون أزرق لم يسبق لي أن رأيت مثله من قبل مرفرفاً بجناحيه بعيداً في دهشة، ثم توقف على الفور على غصن آخر وكأنه على العكس قبل أن يتحداني، وأخذ يصيح مرة أخرى بصوته الحاد. فأُجبرتُ على الرحيل حتى عن تلك الصنوبرة.

٧ ديسمبر

أحسستُ أنني سمعتُ فجأة توالي صياح طائر الوقواق مرتين فقط داخل الغابة الذابلة التي بجوار قاعة اجتماعات القرية. وكان ذلك الصياح يبدو بعيداً جداً وفي نفس الوقت بدا قريباً جداً، مما جعلني أبحث بعيني داخل الأجمة الذابلة وفوق الأشجار الذابلة وفي السماء، ولكنني لم أستطع سماع الصياح بعد ذلك مطلقاً.

وبدأت أشعر أن ذلك على الأرجح وهم ولم يكن حقيقياً. ولكن بدأت تلك الغابة الذابلة والأشجار الذابلة وتلك السماء حولي، تُبعث من جديد زاهية واضحة داخلي وقد عادت تماماً لمنظرها الصيفي الذي أشتاق إليه...

وكان حدوث ذلك، يتزامن مع معرفتي الحقيقية أنني فقدتُ بالفعل في ذلك الصيف منذ ثلاث سنوات كل ما أملكه في هذه القرية، ولم يعد متبقياً لي الآن أي شيء مطلقاً.

١٠ ديسمبر

في الأيام القليلة الماضية ولسبب مجهول، لا تأتين لي بحيوية ونشاط مطلقاً. فأشعر بعدم الصبر على بقائي وحيداً هكذا. في الصباح مثلاً لا يشتعل بسهولة الحطب الذي رصصتُه في المدفأة، وفي النهاية أصاب بالحنق، وأحاول أن أقلب ذلك الحطب رأساً على عقب. وفي ذلك الوقت فقط، أشعر

بك بجواري فجأة تبدين قلقة عليَّ. وعندها أعود لرشدي أخيراً وأعيد ترتيب رص الحطب من جديد.

وكذلك بعد الظهر، أفكر أن أذهب للمشي قليلاً في القرية، فأهبط للوادي، ولأنه في ذلك الوقت يكون الجليد قد بدأ في الذوبان، في الأغلب الأعم أعود أدراجي مرة ثانية لأن الطريق في غاية السوء، ويتراكم الطين سريعاً على الحذاء، ويصبح المشي صعباً بدرجة لا تُحتمل. وعندما أصل إلى الوادي الذي ما زال الجليد متجمداً فيه، وأنا أشعر بالارتياح، ولكن هذه المرة تكون الطريق حتى الكوخ عبارة عن منحدر صاعد طويل يقطع الأنفاس. وعندها أحاول أن أصلح من نفسي التي تكون على وشك الوقوع في حالة اكتئاب، أردد لنفسي وأقول لها بقدر ما أتذكره من جمل الأشعار مثل: (وحتى وإن مشيتُ في وادي ظلال الموت فإن كنتِ معي فلن أخاف بأساً ولا ضراً...)، ولكن حتى مثل تلك الأشعار كانت تجعلني أحس فقط بالخواء.

١٢ ديسمبر

في الغروب عندما مررتُ من أمام الكنيسة الصغيرة سالفة الذكر المحاذية لطريق الساقية، كان هناك رجل يبدو أنه خادم بالكنيسة ينثر رماد الفحم بعناية فوق الطريق الموحل بالثلوج. ذهبت إلى جوار ذلك الرجل، وجربتُ أن أسأله سؤالاً لا هدف من ورائه؛ هل هذه الكنيسة تظل مفتوحة طوال الوقت حتى في الشتاء؟

أجاب ذلك العامل بعد أن توقف عن نثر رماد الفحم: «يبدو أنها ستُغلق هذا العام بالفعل خلال يومين أو ثلاثة أيام. لقد سمعتُ أنها ظلت مفتوحة العام الماضي طوال الشتاء، ولكن سبب إغلاقها هذا العام أن نيافة الكاهن سيذهب إلى مدينة ماتسوموتو...»

سألته سؤالاً وقحاً: «وهل هناك مؤمنون في هذه القرية حتى في مثل هذا الشتاء؟»

«منعدمون تقريباً... على الأغلب يقيم نيافة الكاهن القداس بمفرده»

وتقريباً في تلك اللحظة التي نتحدث فيها معاً ونحن وقوف، عاد من الخارج إلى الكنيسة ذلك الكاهن الألماني. وهذه المرة أمسكت بذلك الكاهن الذي يبدو أنه لا يحسن فهم اللغة اليابانية جيداً ولكنه مع ذلك ودود ولطيف مع الغرباء وسألته عدداً من الأسئلة. وهكذا يبدو أنه سمع ما قلته خطأً فأخذ يكرر دعوته الحارة لحضور قداس الأحد في الغد.

الأحد ١٣ ديسمبر

في الساعة التاسعة صباحاً تقريباً، ذهبتُ إلى تلك الكنيسة دون أن أكون طالباً لشيء بعينه. كان الكاهن قد بدأ القداس وحده بالفعل أمام المذبح الصغير الذي أُشعلت فيه الشموع. كنتُ بسبب عدم كوني مؤمناً لا أدري ماذا أفعل، فجلستُ في آخر صف من المقاعد التي صُنعت من القش وأنا أحرص فقط على ألا أُصدر صوتاً. ولكن أخيراً اعتادت عيني على الجو المعتم قليلاً داخل الكنيسة، كنتُ أعتقد حتى ذلك الحين أنه ما من أحد هنا في مقاعد المؤمنين، ثم رأيت امرأة متوسطة العمر في الصف الأول في ظل أحد الأعمدة ترتدي ملابس سوداء من قمة رأسها وحتى أخمص قدميها. وعندما انتبهتُ إلى أن تلك المرأة تجثو على ركبتيها طوال الوقت منذ دخولي وحتى الآن، أحسستُ فجأة أن برد القاعة الشديد يتخلل جسدي...

استمر القداس بعد ذلك لما يقرب من الساعة. وعندما حان وقت انتهائها، عرفت أن المرأة أخرجت فجأة منديلاً ووضعته على وجهها. ولكنني لم أكن أعرف السبب. وأثناء ذلك يبدو أن مراسم القداس قد انتهت أخيراً، فاختفى الكاهن فجأة داخل غرفة صغيرة ملحقة بأحد أركان القاعة دون أن يلتفت إلى مقاعد المؤمنين. وظلّتْ تلك المرأة كما هي دون أن تحرك ساكناً. ولكن أثناء ذلك، انسحبتُ وحدي خارجاً من الكنيسة.

كانت الغيوم قليلة في ذلك اليوم. وظللتُ بعد ذلك أهيم على وجهي في طرقات القرية التي ذابت فيها الثلوج بمشاعر لا تعرف الارتواء بتاتاً. في الماضي، في المكان الذي كنا نذهب إليه كثيراً للرسم، جربت أن أذهب للمرعى الذي تقف بوضوح في منتصفه تماماً شجرة قضبان بيضاء، وأضع يدي على شجرة القضبان تلك التي لا تزال الثلوج متبقية عند جذورها وأنا أشعر بالحنين إليها، ووفقت بجوارها حتى كادت أنامل يدي أن تتجمد من البرودة. ولكن للأسف لم تُبعث إليَّ أية ذكريات حتى ولو صورتك وقتها... أخيراً رحلتُ أنا أيضاً عن ذلك المكان، بمشاعر وحدة لا أعرف كيف أصفها، وأنا أخترق الأشجار الذابلة، ثم صعدت الوادي مرة واحدة ورجعتُ إلى الكوخ.

وهكذا جلستُ دون وعي فوق ألواح أرضية الشرفة الخشبية منقطع الأنفاس. وأحسستُ وقتها فجأة بأنك تأتين وتقتربين مني وأنا في تلك الحالة المضطربة من المشاعر. ولكنني تجاهلت ذلك، ووضعتُ يدي على خدي في شرود. وعلى الرغم من ذلك، كنتِ ممتلئة بالحياة والنشاط أكثر مما كنتِ

حتى الآن... لقد أحسستُ بك حية نشطة لدرجة أنني شعرتُ وكأنك على وشك أن تلمسي كتفي بيدك...

دعتني فتاة القرية التي يبدو أنها كانت تنتظر عودتي إلى الطعام من داخل الكوخ قائلة:

«لقد أعددتُ لك طعام الغداء»

فدخلت الكوخ وقد برزت على وجهي ملامح التجهم على غير عادتي وقد رجعتُ للواقع فجأة وأنا أفكر ألم يكن من الأفضل أن تدعني كما أنا وشأني؟ ثم جلست بهذه الحال أمام مائدة الطعام وحيداً كالمعتاد دون أن أنبس لها ببنت شفة.

وقُرب الغروب، عادت تلك الفتاة إلى بيتها وأنا ما زلت في حالة من الغضب والعصبية، ولكن بعد مرور فترة من الوقت خرجتُ مرة ثانية إلى الشرفة دونما سبب وأنا أشعر نوعاً ما بندم تجاه سلوكي ذاك. وبهذه الحال، كما حدث منذ قليل (ولكن هذه المرة دون وجودك...) عندما نظرت شارداً إلى أسفل تجاه الوادي الذي ما زالت الثلوج الكثيفة متبقية فيه، وأنا أنظر في جميع أرجاء الوادي هنا وهناك عرفت أن أحداً ما يخترق تلك الأشجار الذابلة ويتوجه صاعداً من الوادي إلى هنا ببطء. ظللتُ أنظر إليه وأنا أفكر تُرى إلى أين يذهب؟ فعرفت أنه الكاهن الذي يبدو أنه يبحث عن كوخي.

١٤ ديسمبر

ذهبتُ مساء أمس لزيارة الكنيسة لأنني كنتُ قد على موعد مع الكاهن. كان الكاهن يتحدث معي ثم يتوقف ويذهب ليقول شيئاً إلى الخادم الذي يُجهز أمتعته ثم يعود، وذلك لأنه سيغلق أبواب الكنيسة غداً ويذهب على الفور إلى مدينة ماتسوموتو. وكان الكاهن يقول ويكرر إنه يأسف بشدة لمغادرته هذا المكان الآن مع أنه يحاول الحصول على مؤمن واحد من هذه القرية. تذكرتُ على الفور المرأة متوسطة العمر التي لمحتها في الكنيسة ليلة أمس وتبدو هي أيضاً ألمانية. ثم أثناء ما كنت أحاول سؤال الكاهن عن تلك المرأة، ولكن الكاهن اعتقد فجأة أنني أسأل عن شيء يخصني...

أصبح بعد ذلك هذا الحوار الذي كان متقطعاً أكثر عرضة للانقطاع. وهكذا صرنا نتبادل الصمت ونحن بجوار المدفأة التي أصبحت مفرطة في سخونتها، نتأمل السماء المشرقة ذات الرياح القوية التي تلائم الشتاء، خلف زجاج النافذة والغيوم الصغيرة تمر متقطعة قطعة بعد قطعة وكأنها تطير.

قال الكاهن بنبرة تبدو وكأنها عفو الخاطر: «لا يمكن رؤية مثل هذه السماء الجميلة إلا في مثل هذا اليوم الذي تهب فيه مثل هذه الرياح»

قلت وأنا أكرر وراءه مثل الببغاء: «حقاً، إلا في مثل هذا اليوم الذي تهب فيه مثل هذه الرياح» وأنا أشعر أن تلك الكلمة التي قالها الكاهن عفواً أثرت في قلبي تأثيراً شديداً...

جلست هكذا مع الكاهن على مدى ساعة تقريباً، ثم بعد ذلك عندما رجعتُ إلى كوخي، وجدتُ طرداً صغيراً قد وصل. كتابان أو ثلاثة كتب مع كتاب «قداس الموتى» لريلكه كنتُ قد طلبتها منذ فترة طويلة مضت، ومعها أوراق كثيرة، بعد أن لفّتْ على عدد كبير من الناس، وصلتْ أخيراً إلى حيث أنا.

بدأت في قراءة «قداس الموتى» لريلكه في الليل، بعد أن جهزتُ كل شيء للنوم فقط، بجوار المدفأة، وصوت الرياح يشغلني من وقت لآخر.

١٧ ديسمبر

هطلت الثلوج مجدداً. استمرت في النزول منذ الصباح بلا توقف تقريباً، ولو حتى لوقت قصير. ثم أثناء رؤيتي هكذا، أصبح الوادي ناصع البياض أمام عيني مرة أخرى. وهكذا بات الشتاء أخيراً أعمق أكثر وأكثر. واليوم أنا أعيش طوال اليوم بجانب المدفأة، ومن وقت لآخر أذهب إلى جوار النافذة كأني تذكرت فجأة، أنظر إلى وادي الثلوج وكأني أسترخي، ثم أعود على الفور إلى جوار المدفأة، وأقرأ «مراثي» ريلكه. ولا أتركك تموتين في هدوء، وأظل أطلبك دون يأس، وأنا أشعر بشدة في قلبي الأرعن بشيء يشبه الندم على شيء ما...

إنني أملك الموتى، ثم أتركهم يرحلون كما يريدون،

ولكنهم لا يشبهون ما يقال عنهم، بل إنهم شيء مؤكد تماماً،

واعتادوا فوراً على الموت، ومع أنهم يبدو عليهم النشاط الشديد

لدرجة تثير الدهشة. ولكن أنتِ... أنتِ فقط

رجعتِ. إنك تحومين حولي وتهيمين في المكان،

وتصلين إلى شيء ما، ثم يصدر ذلك الشيء صوتاً من أجلك،

أنت تخونين. آوه، الأمر الذي حصلتُ عليه بعد معاناة،

لا تنزعيه مني. أنا من على حق، وأنت التي على خطأ،

إن كنتِ تشعرين بالحنين إلى شيء يخص شخصاً ما.

وحتى لو أننا نرى ذلك الشيء أمام أعيننا،

فليس هذا معناه أنه موجود في ذلك المكان.

ففي نفس الوقت الذي ندركه فيه،

فهذا الشيء مجرد انعكاس لوجودنا نحن.

١٨ ديسمبر

جربت الذهاب إلى الغابة البرية الخلفية والتوغل في أعمق أعماقها التي لم أذهب إليها من قبل، لأنني فكرتُ أن هذا فقط هو الوقت المناسب بعد أن ذاب الجليد أخيراً. ذهبتُ مخترقاً الغابة من شجرة إلى أخرى باستمتاع كبير حيث يتساقط فوقي من وقت إلى آخر الجليد الذائب من أعلى شجرة ما أو أخرى محدثاً صوتاً صاخباً. بالتأكيد لم تكن هناك أية آثار لسير أحد، ولكن فقط كانت هناك آثار أقدام أرانب على سطح الأرض يبدو أنها كانت تقفز في المكان هنا وهناك. وكذلك، لسبب ما وجدتُ آثار أقدام طائر التدرج تقطع الطريق من اليمين إلى اليسار...

كانت الغابة لا متناهية، وكذلك بدأت غيوم ثلجية تنتشر فوق تلك الغابة، لذا قررت أن أتوقف عن الدخول إلى عمق الغابة وأرجع من منتصف الطريق. ولكنني على ما يبدو أخطأتُ الطريق، ووجدت أنني في وقت ما فقدتُ آثار أقدامي. ومع ذلك اخترقتُ الغابة متوجهاً إلى المكان الذي يُحتمل أن يقع فيه كوخي، وأنا أطأ الثلوج بقلب ملكته الوحدة فجأة، وأحسستُ أثناء ذلك بوقع أقدام خلفي تختلف اختلافاً مؤكداً عن وقع أقدامي أنا، دون معرفة منذ متى وأنا أشعر بذلك. لكن كان وقع أقدام تُسمع مبهمة لا أدري أحقيقية هي أم لا؟

ولكنني لم ألتفت للخلف بتاتاً بل حرصت على الهبوط سريعاً من الغابة. ثم تركتُ لساني على عواهنه بإحساس من طُعن في قلبه بشيء ما، ينطق بآخر أسطر من كتاب ريلكه «قداس الموتى» الذي أنهيت قراءته أمس.

عودي. وإن فعلتِ ذلك واستطعتِ الصبر،

موتي بين الأموات. فثمة عمل لا ينتظر الأموات.

ولكن أرجوكِ أن تساعديني، بقدر ما لا يتشتت به ذهنك،

ساعديني في داخلي كما ساعدني البعيدون كثيراً عني.

٢٤ ديسمبر

دُعيت في الليل إلى بيت الفتاة الريفية، وقضيتُ معهم ليلة موحشة لعيد ميلاد المسيح. ومع أن القرية الجبلية قد انقطع عنها الناس في مثل هذا الشتاء القارس، ولكن بدا أن القرويين العاديين يستمتعون بهذا التقليد لأن السياح الأجانب يأتون في الصيف أكثر بسبب طبيعة تلك الأرض.

وفي الساعة التاسعة تقريباً رجعت من تلك القرية بمفردي خلال الوادي الكئيب الذي أضاءه بياض الجليد. وعندما كنتُ على وشك المرور على آخر أجمة من الأشجار الذابلة، انتبهت فجأة إلى وقوع إضاءة خافتة جداً فوق غابة من الخيزران الذابل على جانب الطريق متكومة في كومة واحدة دون معرفة مصدر تلك الإضاءة. وعندما أدرتُ نظري دورة كامل على الوادي الضيق الذي تتناثر فيه المنتجعات في كل مكان، وأنا أتساءل عن سبب سقوط مثل تلك الإضاءة في مثل هذا المكان، أمكنني التعرف على مكان واحد فقط هو الذي به إضاءة، وعلى الأرجح أن ذلك البيت هو كوخي الصغير في أعلى مكان بالوادي.

وبدأت أصعد ذلك الوادي ببطء وأنا أفكر: (هذا هو الحال، إنني أسكن وحيداً تماماً في مثل هذا الوادي)، ثم قلتُ وكأنني أتحدث بنفسي إلى نفسي: «ومع هذا لم أنتبه مطلقاً إلى أن إضاءة كوخي تتسلل إلى أسفل هذا المكان وسط الغابة... انظر!» ثم واصلت كلامي: «هنا، وأيضاً هنا، تقريباً تتناثر نقاط صغيرة من الأشعة فوق الجليد في كل مكان في الوادي، وكلها ناتجة عن إضاءة كوخي الصغير...»

وعندما صعدتُ أخيراً إلى ذلك الكوخ، وقفتُ كما أنا في الشرفة وحاولت أن أرى مرة أخرى: تُرى إلى أي درجة تضيء إضاءة هذا الكوخ الوادي؟ ولكن عند النظر من هذا المكان، لم تكن إضاءة الكوخ تلقي إلا بعض الضوء الخافت جداً حوله فقط. ثم كان ذلك الضوء الخافت يتحد مع إضاءة الجليد وهو يزداد خفوتاً كلما بعد تدريجياً عن الكوخ.

تحدثتُ إلى نفسي وكأنني قد استنفدتُ طاقتي نوعاً ما قائلا: (ما هذا؟ الضوء الذي كان يُرى لتلك الدرجة، عند النظر إليه من هنا، لا يزيد على هذا فقط؟) ومع ذلك وأثناء نظري في ظلال الضوء وأشكو هكذا لنفسي، برزت في ذهني الفكرة التالية: (... ولكن ألا تبدو حالة تلك الظلال وكأنها شبيهة تماماً بحياتي الشخصية؟ إنني أظن أن الإضاءة التي حولي خافتة وقليلة بهذا القدر فقط، ولكنها في الحقيقة مثل إضاءة كوخي، كانت أكثر بكثير مما كنتُ أعتقده أنا. وربما كانت تلك الإضاءة دون أي اعتبار لوعيي أنا، كانت هي التي تحييني صدفة بهذا الشكل...).

تلك الفكرة التي لم أكن أفكر فيها مطلقاً، جعلتني أظل واقفاً إلى ما لا نهاية في الشرفة الباردة التي يضيئها الجليد.

٣٠ ديسمبر

كانت ليلة هادئة حقاً. وتركتُ نفسي هذه الليلة أيضاً تفكر في تلك الأفكار التي تطرأ لذهني تلقائياً.

(على ما يبدو أنني لست أكثر سعادة من الآخرين، وكذلك لست أكثر تعاسة. ربما كانت السعادة التي سببت لنا مثل هذا القلق في الماضي هي بدرجة إن حاولنا الآن نسيانها كانت أمراً يمكن نسيانه تماماً. بل ربما كنتُ وقتها على العكس في حالة أقرب كثيراً من حالة السعادة. على كل، فحالة قلبي الآن، تشبه تلك الحالة، أو أنني حزين قليلاً فقط... ولكن رغم قول ذلك بالتأكيد لست مستمتعاً... وحتى حياتي هكذا وكأنني ليس بي أي شيء، ربما لأنني لا أختلط بالناس ولا المجتمع وأعيش وحيداً، واستطاعتي أنا مثل هذا الأمر الجبان، هو في الحقيقة بفضلكِ. ومع ذلك يا ستسكو، لم أفكر مرة مطلقاً أنني أعيش وحيداً هكذا من أجلك أنت. فأنا لا أعتقد إلا أنني أفعل ذلك من أجلي أنا فقط على أي حال. أو ربما يكون الأمر كما هو متوقع كان من أجلك، ولكنني مع ذلك، هل أنا أصبحتُ معتاداً على حبك لدرجة أن أعده خسارة فيَّ لدرجة الاعتقاد أنني أحاول جاهداً أن أجعله من أجلي أنا فقط؟ لتلك الدرجة أحببتني دون طلب شيء في المقابل؟)

وأثناء ما كنتُ أستمر في التفكير في ذلك الأمر، نهضتُ واقفاً وكأن شيئاً ما طرأ لذهني، واندفعتُ خارجاً من الكوخ. ثم وكما هو الحال دائماً عندما وقفتُ في الشرفة ويعتقد أن الوادي بالضبط خلف ظهري تماماً ظللتُ واقفاً أستمع مصغياً للرياح تصخب مرة بعد مرة، يأتي صوتها وكأنه يُسمع من مكان بعيد جداً. كنتُ في البداية لا أرى كل الأشياء في الوادي الذي يرقد أمامي، إلا

عبارة عن كتلة مغبشة ومشرقة من الجليد فقط، ولكن أثناء ما كنتُ أنظر هكذا دون أن أكون قاصداً النظر، وربما السبب أن عيني بدأت تعتاد تدريجياً على ذلك المنظر، أو ربما بسبب أنني دون أن أدري كنتُ أعوّض النقص من ذاكرتي، بدأت الخطوط والأشكال تبرز تدريجياً وببطء. لهذه الدرجة كنتُ قد ألفتُ كل شيء، ما يقول عنه هؤلاء الناس «وادي السعادة» أجل، لقد فهمت بالاعتياد على السكنى هكذا، حتى أنا أصل إلى درجة أن أدعوه بنفس الاسم مع هؤلاء الناس، ...هنا فقط ورغم أن الجانب الآخر من الوادي، يصر صريراً هكذا، كان هادئاً هدوءاً حقيقياً.

وعلى أي حال كان هناك شيء ما خلف كوخي مباشرة يصدر صوت صرير خافت من وقت لآخر، وعلى الأرجح أن ذلك صوت تلامس أغصان ذبلت حتى منتهاها بسبب الرياح التي وصلت إلى هنا من مكان غير بعيد. وكذلك كانت مثل تلك الرياح الباقية التي لا تدري ماذا تفعل، تجعل ورقتين أو ثلاث ورقات عند قدميَّ تنتقل وهي تصدر صوت حفيف ضئيلاً...

سيرة المترجم

كاتب ومترجم عربيّ ولد في القاهرة. ذهب إلى اليابان للدراسة عام ١٩٩٦ ويقيم بها حتى الآن. عمل مترجماً بين اللغة اليابانيّة والعربيّة منذ عام ١٩٩٩. ترجم وكتب عددًا من الدراسات والمحاضرات والأبحاث والقصص القصيرة والمقالات. نُشرت له ترجمة روايتي (الكسوف) و(حكاية قمر) للأديب الياباني «كيئتشيرو هيرانو»، ثم ترجمة رواية (الإوزة البرية) للمؤلف «أوجاي موري».

وترجمة مجموعة قصص قصيرة بعنوان (رسوب) لعدد من عمالقة الأدب الياباني.